الطبعة الخامسة

من الأدب الساخر

# صايع بالوراثة

يوسف معاطي








الدار المصرية اللبنانية

# صايع بالوراثة

يتضمن هذا الكتاب 39 موضوعًا من الموضوعات التي تتناول نقدًا خفيف الظل لعديد من الظواهر والسلوكيات الاجتماعية السائدة في عالمنا المعاصر، كتبها الأستاذ يوسف معاطي بأسلوبه المتميز بالقدرة الفائقة على السخرية من تلك الأوضاع المعيبة.

ويقول في مقدمته لهذا الكتاب: إن "الصايع" الآن لم يعد ذلك العاطل البلطجي الذي ليس معه بطاقة ويحمل في جيبه مطواة .. وإنما الصايع في زماننا هذا عنده بطاقة وباسبور وفيزا كارت .. ويحمل في جيبه دفتر شيكات .. وحوله مجموعة من الحرس والبلطجية يخدمونه ويحرسونه!.

وعلى الرغم من أن الموضوعات المعروضة في هذا الكتاب تبعث على الابتسام والضحك في نفوس القراء، إلا أنها تثير فيهم حس التأمل في تلك التجارب الإنسانية وتبين لهم ماهو الصالح منها، وماهو الطالح!.



* الأستاذ يوسف معاطي كاتب ساخر يعرفه قراء الصحف والمجلات .. ويستمتع بأعماله الكوميدية مشاهدو التليفزيون ورواد السينما والمسرح.

* وقد أصدرنا له من قبل مجموعة من كتبه في الأدب الساخر، أشهرها: الفن وأهله .. عفاريت .. صايع بالوراثة.. وهي كتب متميزة حازت إقبالاً من القراء في مصر والبلاد العربية.

* من أشهر مسرحياته الكوميدية: حب في التخشيبة.. الجميلة والوحشين.. بوبي جارد .. بودي جارد .. بهلول في استامبول .. لألأ بلاش كده .. وهي مسرحيات ناجحة قام ببطولتها كبار نجوم الكوميديا.

* كما كتب العديد من قصص وسيناريوهات الأفلام السينمائية الكوميدية أشهرها: رمضان مبروك أبو العلمين حمودة .. حسن ومرقص .. طباخ الريس .. التجربة الدانمركية.. عريس من جهة أمنية.. السفارة في العمارة .. الواد محروس بتاع الوزير.. ياتحب ياتقب .. حاتحب وتقب.

* كما ألف عددًا من المسلسلات الناجحة التي كان لها أثر كبير داخل المجتمع العربي مثل: يتربى في عزو .. عباس الأبيض في اليوم الأسود .. سكة الهلالي..

الدار المصرية اللبنانية

من الأدب الساخر

# صايع بالوراثة

يوسف معاطى



الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة.. للمقدمة

لم يعد الصايع الآن.. هو ذلك العاطل البلطجى الذى ليس معه بطاقة وفى جيبه مطواه قرن غزال.. فالوصف السابق ينطبق على الغلبان.. أما الصايع بتاع القرن الواحد والعشرين فعنده بطاقة وباسبور وفيزا كارت.. وفى جيبه دفتر شيكات.. وحوله الحرس والبلطجية يخدمونه.. ويحرسونه.. اتفقنا على التعريف.. إذًا.. فأنا لا أدعى الصياعة ولا أدعى الغلب أيضًا ولكن كثيرًا ما وصف بعضهم مقالاتى وهم يمدحونها.. بأنها مقالات صايعة قوى.

فلما كان أبى «غلبانًا» معتمدًا.. لم أرث منه الصياعة.. فمن أين ورثتها؟.. ربما من المازنى.. أو من جليل البندارى.. أو من محمد عفيفى.. ربما كنت صايعًا «شمورد» أحبو فى حارة السعدنى أو برناردشو أو مارك توين.. ولما تهت فى المقدمة.. وجدت أننى يجب أن أعرض نفسى على دكتور.. والدكتور

مدحت أبو بكر. . الناقد والمبدع متخصص فى السيكودراما. . أو فى التحليل النفسى للأعمال الفنية. . فذهبت إليه. . وعرضت عليه الكتاب فوضعه على الشيزلونج كما يفعل كل الأطباء النفسيين. . وبدأ يعمل تحاليله. . وآشعته. . ويكتب روشتته. . اتفضلوا. . فى أوضة الكشف.

**يوسف..**

# أجمل صايع على أرصفة الحياة
# رؤية نفسية شوارعية

كل بنى آدم فى الدنيا له شعور، يعنى ما يعيشه ويعايشه حاليًا، ولا شعور، يعنى الخبرات الماضية المرمية فى المخزن النفسى، يوسف معاطى هو البنى آدم الوحيد فى الكون الذى يمتزج شعوره بلاشعوره ويتبعثر صادقًا ضاحكا صريحًا مريحًا على الورق، كده زى ما خلقه ربنا، وبالتركيبة النفسية التى لا يخجل من مصارحة الناس بها؛ حيث يصطحب الجميع فى رحلة داخل ذاته دون أن يتعمد أن يخفى شيئًا، يوسف يفتح أبواب ذاته فتجده شقة مكركبة لا يعنيه أن ينظمها أو يرتبها أو يجملها، فجمالها فى كركبتها وروعتها فى صدق تكوينها كما هى، ويبدو ذلك مثل شمس أغسطس فى آخر عنقوده الفكرى - أطال الله فى عمره - صايع بالوراثة، إنه الناقد الذاتى الأول لنفسه، تأمل ماكتبه بعنوان قمة الفشل، والنقد الذاتى أبرز ملامح النضوج النفسى ومصالحة الذات.. جو مصالح نفسه تمامًا لدرجة اعترافه بعناصر الضعف النفسى الإنسانى، التى قد يعتقد البعض أن إخفاءها

قوة نفسية، بينما الحقيقة أن الإخفاء قمة الضعف النفسى. تأمل «النهايات المفتوحه» فهو يؤكد أنه يكره النهايات المفتوحة، بينما ينهى ما قاله، وينهى الكتاب كله بنهاية مفتوحة، إنها الازدواجية الإنسانية الجميلة.

يوسف معاطى دبور فى حدائق الإبداع يستدعى قراءاته وتجوالاته ورحلاته، ويلتقط الأفكار، ويمنحها رحيق هذه التركيبة الجميلة سخرية فلسفية الملامح، ثرية المعلومات، مدهشة التركيبات اللغوية، فاتحة بقها ع الآخر. وتدعوك أن تفتح قلبك وبقك ومشاعرك ع الآخر؛ حتى تستمتع بكل ما يقذفه يوسف معاطى بإنسانية صريحة فى إنسانيتك.

صايع بالوراثة.. عصير تجربة إنسانية تجعلك تعشق الصياعة والتسكع فى شوارع الضحك، والجلوس على أرصفة الفن والأدب والفلسفة البسيطة الجميلة، وجو فى هذه الصياعة يعترف أن التركيبة النفسية التى قدمتها نظرية فرويد للتحليل النفسى، تمتزج فيها رغبات وغرائز الهو وتوازنات الأنا ونصائح الأنا الأعلى.. هذا هو الانسان وهذا هو يوسف معاطى، أجمل صايع بالوراثة وبالخبرة ويعشقه لكل أرصفة الحياة.

**أخوك الصايع برضو**

**د. مدحت أبو بكر**

# قمة الفشل

أعزائى.. لقد احتجت إلى اثنتى عشرة سنة كاملة من الكتابة حتى اكتشفت وتأكدت أننى كاتب فاشل.. ولكننى مع ذلك لم استطع أن اعتزل الكتابة فقد أصبحت مشهوراً.. وعموماً.. أنا مازال عندى أمل.. ليس فى أن أصبح كاتباً جيداً.. وإنما.. ربما.. بعد سنوات طويلة من موتى يرانى بعضهم كاتباً لا بأس به.. وكما يقول سومرست موم الكاتب الفذ.. القصة الجيدة لابد أن تكون قديمه والقصه الجديده لابد وأن تكون رديئه.. لقد جئنا متأخرين وأنا لا أريد حكمكم الآن، انتظرونى بعد أن أعتق وأقدم.. عندها ستكتشفون فى أشياء أنا نفسى لم اكتشفها.. وحتى إذا لم تكتشفوا هذه الأشياء فلن يعنينى هذا.. سأكون ميتاً..

جلس ثرى أمريكى وزوجته فى دار الأوبرا بباريس يشاهدان رواية لفيكتور هيجو، وفى الاستراحة هتف الرجل لزوجته وهو يشير إلى كهل له ذقن طويلة بيضاء.. انظرى هذا هو فيكتور هيجو الكاتب العبقرى.. قالت الزوجة.. مستحيل.. إن فيكتور هيجو ميت منذ

فترة طويلة، فنظر الرجل إلى الكهل ثانية.. وقال.. ولكن.. انظرى.. إنه يتحرك! والخطأ الذى يقع فيه بعض الكُتّاب أننا إذا كتبنا مقالا أو قصة أو مسرحية نتصور ـ فى هبل ـ أن الدنيا كلها لاحديث لها سوى هذا العمل الفنى.. وهذا فى الواقع لايحدث.. فأغلبية الذين يقرأون مقالات يولد بداخلهم ذلك السؤال الأزلى ماهذا الهراء الذى يكتبه؟!

وعموما هذا أهون مما حدث لونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى الأشهر.. حينما كان راكبا القطار ودخل عليه شيخ مسن، وجلس أمامه وظل الشيخ يحملق فى تشرشل.. ثم قال كمن تذكر شيئًا.. اعذرنى ولكن ألست أنت مستر تشرشل الذى كان معى فى مدرسة هاو الابتدائية عام ١٨٨٤؟ فأجاب مستر تشرشل بالإيجاب.. فقال الشيخ فاتحًا ذراعيه فى ترحاب وهو يقول أهلاً.. بصديقى القديم.. اين أنت أيها الصديق طوال هذه المدة ستون عامًا لم أسمع عنك شيئا.. وشغال فين دلوقتى؟!

والقصة على طرافتها تعكس أمرًا بالغ الأهمية.. وهو أن أحدًا لايشعر بأحد مهما فعل.. وهذا العالم الذى يسمونه قرية صغيرة بعد ما يسمى بالعولمة كذبة؛ إذ إن كل بنى آدم فيه يمثل وحده مجرة كبيرة لا أول لها ولا آخر..

وللحق.. هناك طوائف تأخذ حقها تالت ومتلت فى حياتها وترى

مجدها بعينيها.. هؤلاء هم السياسيون ونجوم الرياضة ونجوم السينما.. أما أمثالنا من الكتاب.. وأعنى هنا الفاشلين أيضًا.. فيفضل الإشارة إليهم بعد موتهم.. بل إن عبقريًا مثل سرفانتس صاحب «دون كيشوت» الرائعة مات وهو مديون لطوب الأرض.. وغيره كثيرون.. ولكن هناك استثناءات بالطبع.. فجدنا الساحر الأكبر برناردشو كان مريش ودفيان وما يفتحش بقه.. ولا يكتب حرفًا إلا لما يأخذ الظرف.

ويقال إنه كان يلقى خطابًا اشتراكيًا شديد اللهجة فى لندن قال فيه: حينما دخلت القاعة لمحت سيارة رولزرويس تساوى آلاف الجنيهات فهل من العدل أن يترك كل هذا المال لفرد واحد.. وملايين الجوعى فى العالم؟ اذهبوا وتأكدوا بنفسكم من الأمر.. وأجيبونى.. أليس من الأفضل أن ينفق هذا المال لجعل حياة الفقراء أفضل؟. وهنا نهض الحاضرون والشرر يتطاير من أعينهم، وقد بدا أنهم موشكون بالفعل على أن يحطموا السيارة.. هنا قال لهم شو.. أهدأوا قليلا.. أنا قلت شوفوها بس.. دى عربيتى أنا.. واللى ح يجرحها ح أعوره.

ولكن برنارد شو الساحر المليونير كان استثناء من القاعدة لأنه كان نجمًا بحق... بسحره.. بتأثيره فى الناس.. بعلاقاته.. بملايينه.. أما أى نجم سينمائى أو نجمة سينمائية، فهما محاصران بالتكريم ليل نهار.. حتى بعد موتهما.. مجلات تفرد أعدادًا خاصة عنهما..

سهرات تليفزيونية.. كتب ومذكرات ويقال إن ناقدًا فرنسيًا دخل مقهى الفنانين فى باريس.. وكان حزينًا وسأله أصدقاؤه ماذا حدث، فقال ألا تعرفون أن النجمة الرائعة كورتيللين ماتت.. فذهل الجميع وأخذوا يتحدثون عن مزاياها.. ورقتها.. وأفلامها الرائعة.. وإذا بكورتيللين نفسها تدخل المقهى، وقبل أن يفتح أحدهم فمه.. قال الناقد الفرنسى.. هس.. إنها لا تعرف بعد محدش يقول لها.. خللونا ندرج لها الموضوع.

وأنا بعد اثنى عشر عامًا من الكتابة واكتشافى لفشلى المؤكد.. لاملايين ولا تأثير ولا حتى علاقات.. وإذا ذهبت لأجدد الرخصة احتاس حوسة ليس لها نظير.. قررت أن استمر فى هذا الفشل طالما أننى وصلت إلى قمته.. وبلوغ القمة صعب سواء فى الفشل أو فى النجاح.. المهم المحافظة عليها.

فى المساء.. عدت إلى منزلى.. كانت زوجتى جالسة مع ضيوفها تتباهى بآخر كتبى الذى لم يشتره أحد منهم بالطبع.. وجلست معهم ودخلت الخادمة فسألتها هل رن أحد التليفون، وأنا بالخارج؟! فأجابت.. نعم ياسيدى السفير الفرنسى اتصل.. فأجبتها بكل ألاطه أمام الضيوف.. إنه لشرف عظيم، وماذا كان يطلب فخامة السفير؟! فأجابت الخادمة لا شىء ياسيدى.. لقد كانت النمرة خطأ.

# ليلة القبض عليّا

قصة طريفة جدا.. فظيعة.. وكوميدية جدا.. تَمُوِّت من الضوحك.. ولكن كلما بدأت فى روايتها لأحد يحدث شىء ما.. لدرجة أننى إلى الآن لم استطع أن أروى القصة كاملة.. وأجمل ما فى هذه القصة خاتمتها.. القفلة روعة.. وأنا ابدأ دائما برواية القصة وما أكاد أقترب من الخاتمة، حتى يحدث ما يمنعنى من الوصول إلى نهايتها المضحكة جدا.. مثلا فجأة يقلب أحد السامعين بطريقة الخطأ كوب ماء على الأرض.. ويتحطم الكوب فأتوقف عن الحكاية لأتعاون مع الجميع على جمع شظايا الزجاج المكسور.. وهذا يقول خير وهذه تقول خدت الشر وراحت.. وأضطر لتلخيص الجزء الذى حكيته من الحكاية فى جملة مختصرة حتى استرسل..

الحكاية إنهم مرة بعتولى أمر ضبط وإحضار من القسم.. نظرت إلى الصول الذى جاء ليقبض عليّا.. ونظر هو أيضا لى.. و.. ويدق فجأة جرس الباب فيتركنى السامعون ويتجهون بعيونهم نحو الباب تاركين بقية القصة تموت على شفتى.. ويأتى من أتى، ويسلم

على الجميع واحدًا واحدًا ويجلس بيننا. وبعد التحيات والسلامات التقليدية أحاول أن أكمل القصة.. قعد الصول يبص لى وأنا أبص له.. يسألنى القادم الجديد.. صول إيه.. أقول له.. أصلك لسه وأصل الحكاية إنهم مرة بعتولى أمر ضبط وإحضار من القسم..

هنا تصرخ زوجتى فجأة.. ريحة شياط.. هنا يتركنى السامعون يبحثون تحت الموائد والكراسى والسجاجيد عن مصدر النار.. وكل منا يتشمم بأنف خبيرة إلى أن نكتشف أنها السحابة السوداء، ويدور حديث تقليدى سخيف حول السحابة وتموت قصتى تماما.. إلى أن يهتف بى أحدهم قائلا قول بأه.. وعملت إيه مع الصول.. هنا أبدأ فى سرد قصتى عليهم، ولكن رشا صديقة زوجتى.. تقاطعنى فجأة وهى تقول. اسكت مش مرة هشام جوزى جاله أمر ضبط وإحضار برضه.. كان جاله استدعاء للجيش.. وماراحش.. اترعبنا.. هشام عمره ما دخل قسم بوليس كلمنا أونكل ساهر.. ودفعنا الغرامة.. بس كان ميت فى جلده. وأنا عماله أقولله ح ازورك فى السجن بعيش وحلاوة.. وينفجر الجميع فى الضحك، إلا أنا طبعا فأنا الوحيد الذى لم أكمل قصتى.. قصتى.. فظيعة.. كوميدية جدا..

ولكن مش مهم بعد أن انتهت رشا من قصتها، قلت لهم.. أكمل لكوا بأه الحكاية.. الصول بص لى وإذا بأحدهم يسألنى.. صول

مين.. فرد واحد من الشلة قائلا فى ضيق اللى جايب له أمر الضبط والإحضار.. ما تركز يا أخى!! يقول أه. وبعدين؟! وتسود الجلسة حالة مفاجئة من الاهتمام بحديثى الشيق وما أكاد افتح فمى.. إذا بابنتى «هيا» تصرخ فى بكاء متواصل.. وتنتفض زوجتى جارية.. وراءها ثلاثة أو أربعة على الأقل من الجالسين.. وتعود زوجتى بهيا ويبدأ الجميع فى مداعبتها.. يا ختى كميله.. إيه الطعامة دى.. لأ.. دى مش شكل يوسف خالص.. دى حتة من أمها، ويدور حوار طويل حول لمن تنتمى «هيا» شكلا هل لى أم لأمها.. لا.. البُق والمناخير أمها خالص.. أنتا مناخيرك طويلة.. وتهدأ «هيا» أخيرا. ويهدأ الجو ويستقر.. وأقول لهم فى إصرار.. انتوا معايا!! فيردون فى صوت واحد آه صحيح.. عملت إيه مع الصول؟! وما كدت أتكلم حتى سمعنا صوت فرامل سيارة فظيع.. وصوت ارتطام.. وجرينا جميعًا إلى الشرفة كل واحد خايف على عربيته طبعا.. كان شابا يقود سيارة ويعمل غرز وخمسات وارتطمت بمدخل العمارة.. وعدنا إلى مقاعدنا نحمد ربنا.. إنها جات سليمة.. بالنسبة لنا طبعا وقال أحدنا.. شباب صايع مش متربى.. مش تعبان فى حاجة، ماهو لو تعبان ما كانش يعمل كده بالعربية..

وبدأ حديث طويل عن استهتار شباب هذه الأيام مقارنة بنا.. إلى

أن صمت الجميع، وأخليت خشبة المسرح تماما لى لأكمل قصتى. . الكل منتبه. . منصت. . مستغرق فى حكايتى. . ياللاه بأه قول ما تشوقناش. . وقبل أن أبدا. . قام أحدهم وبدأ يعزم بسجاير على الجالسين، فتوقفت للحظة، ثم ما كدت أتكلم حتى قامت زوجتى تقدم لكل منهم طبقًا به بعض الحلوى، فيعتذر بعضهم ويشكرها البعض الآخر. . وتسألها إحداهن من أين أتت بهذه الحلوى الرائعة. . ولم أيأس وبدأت أروى القصة من جديد.. إنها أظرف قصة حدثت لى فى حياتى. . . حكاية تفطس من الضحك. . تقاطعنى زوجتى قائلة لأ القصة الأحلى بأه يوم ما كنا فى تركيا. . فاكر احكيلهم حكاية تركيا وتسخسخ هى من الضحك. . ولكنى لا أعبأ بمقاطعتها، واستمر فى قصتى الضاحكة جدا التى لها أحلى نهاية كوميدية. . جاء لى أمر ضبط وإحضار وفتحت الباب فوجدت أمامى الصول ونظرت إليه. . ونظر هو لى أيضا. . للأسف الشديد. . الصفحة خلصت.

# صايع بالوراثة

كانت صدمة مروعة لرجل متزوج، وعنده أربعة أولاد أكبرهم أنهى تعليمه الجامعى، أن يعرف بطريق المصادفة وبعد العمر الطويل أنه لا يستطيع الإنجاب وكاد الرجل يجن.. عياله الذين عاشوا معه طوال هذه السنين وحملوا اسمه وكان يدللهم ويداعبهم ويعملوها عليه، وهو يضحك فى سعادة.. ليسوا أولاده!! واعترفت الزوجة بما فعلت ولكنها دافعت عن نفسها ببجاحة وقالت ـ وما فائدة أن يعرف.. كان من الممكن أن يعيش حياته كلها لم يجرب طعم الأبوة.. أنا لم أشا أن أحرمه من أن يكون أبا..

لاهوه ولا غيره.. إنتى ماحرمتيش حد من حاجة.

ورغم اختلافى الشديد مع منطقها البشع. إلا أننا لو هدأنا قليلا وما خدناش الموضوع على أعصابنا، سنجدها تطرح سؤالا فى غاية الأهمية.. هل من الأفضل أن نعرف تلك الحقائق المرة المؤلمة ونعيش حياتنا كلها نتعذب.. أم لا نعرفها نهائيا ونعيش؟! هل يصارح الطبيب

مريضه بأن أيامه صارت فى الدنيا معدودة أم يخفى عنه هذه الحقيقة؟!

ولم يطق العلماء صبرًا.. وفجروا قنبلة القرن.. (الچينوم البشرى)، وهو الجهاز الوراثى للإنسان، الذى يحمله كل حيوان منوى وكل بويضة.. وبدأوا فى فك طلاسم الشفرة الوراثية وخريطة الجينات التى تتحكم فى نمونا وفى لون أعيننا وشعرنا وجلدنا، بل وفى تصرفاتنا وسلوكياتنا.. ومشاعرنا أيضًا. ويستطيع علماء القرن الجديد أن يفتحوا الكوتشينه ويقرأوا الفنجان، ولكن على أسس علمية قوية لامجال للشك فيها.. فإذا كان السونار هو أعجوبة القرن الماضى، والذى جعلك ترى ابنك أو ابنتك لأول مرة على الشاشة التليفزيونية، كوجه جديد ينضم إلى أسرتك، دون واسطة ولا قريب فى التليفزيون، فهذا السونار المعجزة سيصبح فى القرن الجديد مثله مثل أم فوزى الداية.

فلن يكتفى الطبيب بقوله مبروك جالك ولد، ولكن بعد أن يطلع على خريطة الجينوم الوراثية سيطرق فى أسى ويقول: هو ولد.. بس.. وأسأله فى جزع بس إيه يادكتور، سيرد قائلا: بس صايع.. أخبط على صدرى بيدى فى رعب.. صايع إزاى بس؟! ده أنا ح أربيه أحسن تربية!! يبتسم الدكتور ساخرًا ويقول «تربية إيه يا أستاذ والله لما تعمل معاه إيه.. جينات الصياعة عنده وراثية.. حيطلع

شُغَلى وشَبِّيح وِحَ يمَرْمَطكوا.. أنا مش باجيب حاجة من عندى.. الچينوم بتاعه قدامى اهوه.. اسأله فى مرارة.. يادى المصايب اللى نازلة ترفِ على دماغى.. وده من إيه يادكتور؟ ينظر لى الدكتور باستنكار ويقول.. يعنى مش عارف من إيه؟! تحب افتح لك الجينوم بتاعك.. إنت ناسى اللى انت عملته.. إحنا ح نصيع على بعض ولا إيه، ثُم يسألنى فى حزم.. هه.. ننزله ولا عاوزه؟! أرد فى استسلام. خليه يادكتور وأمرنا لله.

يرد قائلا: إنت حر بس اكتب لى تعهد هنا إنك مسئول عن تصرفاته لغاية ما يبلغ سن الرشد.

وهكذا تحدث جفوة بينى وبين ابنى من أول لحظة.. فأظل أراقبه طول الوقت، وواقف له ع الواحدة، فأنا لم أعد أتعامل مع الجنايات.. وإنما أتعامل مع الچينات.. كان يرضع من أمه.. واقتربت منه أداعبه، فرفسنى برجله فى وشى رفسة كانت ح تطير عينى.. ولما حاولت أن أردها له بشلوت فى كتفه.. أخذته أمه من أمامى وهى تصرخ.. إنتا ح تضرب الواد؟! إنتا اتجننت!! وحينما بدأ يحبو.. ظل يزحف كرجال الصاعقة.. حتى وصل إلى المطبخ ولم يلفت نظره سوى السكين الذى أمسكه بمهارة.. وأخذ ينظر لنا نظرة مرعبة.. وأمه تصرخ الواد ح يعور نفسه.. خذ منه السكينة.. ووقفت عند الباب اتأمله واتذكر كلام

الجينوم.. وبالعافية وبصعوبة شديدة قدرت أن أنتزع منه السكينة، وانتهيت إلى قرار نهائى أن أبعثه يتطوع فى الجيش، وينزل لى إجازات فقط فأنا لا أضمن أن أرسله إلى الحضانة فيحولها إلى مذبحة القلعة.

ويحكى أن رجلا ذهب إلى الطبيب الوراثى؛ لكى يطلعه على خريطته الوراثية.. فنظر إليها الطبيب وقال له. انت ح يصيبك سكر على سن الأربعين، وبعدها بسنتين ح يصيبك ضغط وفى سن الخمسين ستتعرض لحالة مالخوليا بسيطة، وهى نوع من العبط والبلاهة غير المؤذية لن تصل إلى التخلف العقلى.. أما بالنسبة للقلب.. قلبك ضعيف.. فحاول ألا تسمع أخبارا سيئة وإلا تصاب بسكته قلبية.. فهمت؟!

ولم يرد الرجل.. ونظر له نظرة غريبة.

ويكرر الطبيب.. أنا باكلمك.. فهمت؟!

وظل الرجل كتمثال يسدد النظرة الثابتة نفسها.

وصرخ الطبيب فى زهق.. ماترد عليّا.. ولكن ـ يا حول الله يارب؟! ده أنا لسه بأكلمه.. أعمار!!

أه يا أعزائى من قسوة المعرفة.. واسمحوا لى أن أعكس المثل الشهير وأقوله كما يتفق مع جينوم القرن الجديد.. (إن كنت

لاتدرى فتلك مصيبة.. وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم).. من رحمة ربنا بنا أن الموت يأتى فجأة، ولا يرسل تلغرافا قبل المجئ. والمرض يأتى فجأة بلا موعد ولا تليفون.. مما يحافظ على الأيام الأخرى من الحياة هادئة.. سعيدة.. حتى لو كانت وهما.

غدا سيشخصون الأمراض قبل ظهور الأعراض.. وسنجد الكثيرين ينتحرون حينما يعرفون، وجوازات كثيرة ستبوظ قبل الزواج.. حينما تعرف العروسة أن عريسها بخيل وجلدة ويموت ع المليم، مع إنه داخل عليهم فى إيده كيس كانتالوب وطبق بسبوسة ولكن الجينوم هو الأصدق.

ثم كيف سنحاكم أو نعاقب شخصا دفعته چيناته إلى ارتكاب الجرائم، إذا عرفنا عنه ذلك من البداية؟ فهل نحاكمه باعتبار ما سيكون؟! سيشكو لى صديقى فى حزن.. امبارح المدام جابت ولد أقول له مبروك.. يرد فى أسى.. إحنا لحقنا اتهنينا بيه.. هيه ولدته من هنا، ومباحث المخدرات جم خدوه.. فقد قرأوا فى جينومه الوراثى إنه واد صاحب مزاج ودماغه كلها بانجو.

# أنا جيت منين؟

يولد طفل فى منزلك.. وطوال ثلاثين عامًا يثير فى البيت ضجة لا تستطيع أن تتحملها، ثم يرحل فجأة، ويتزوج ويترك المنزل يخيم عليه الصمت بدرجة تجعلك تعتقد أنك ستفقد قواك العقلية.. ونحن نستلم أطفالنا من الله.. ملائكة لا يعرفون أخطاءنا هذه الإنسانية فيكتسبونها منا.. ثم نعود ونلومهم على أنهم يمارسونها..

سألت الطفلة أمها فى لهجة كلها براءة وسذاجة.. ماما.. ترى من أين أتى أخى الصغير؟ وكان قد انقضى على ولادته أسبوع واحد.. وعبست الأم فى وجه ابنتها وهتفت بها فى صبر نافذ.. توته.. اسكتى.. دعك من هذا اللغو.. وهيا.. عانقى ماما.. ولم تعانقها الطفلة، ظل السؤال مرسومًا بوضوح على وجهها البرئ، فقالت لها الأم عليك ببابا. هيا.. اذهبى ووجهى إليه السؤال.. كان جالسًا يقرأ الجرائد.. واخترق السؤال أذنه.. بابا.. من أين أتى أخى الصغير؟.. وضحك أبوها، ثم أحس بشىء من الارتباك، فقرر أن يعمد إلى الحيلة.. فاجاب.. لقد وجدناه يا ابنتى فى قلب كرنبة.. فسعدت الطفلة جدا وقالت.. وأنا يا بابى.. من

أين جئت؟ وضحك الأب مرة ثانية وأجاب.. لقد وجدناك فى قلب وردة جميلة ذات صباح.. قالت وإنت. وماما من أين جئتما؟ فردت الأم من الداخل فى غضب.. وبعدين معاك ياتوته فهمس لها الاب أنا جيت من قلب تفاحة، وماما جت من قلب تين شوكى، فى المساء كانت توته قد كسرت ثلاث بطيخات وثلاث قرنبيطات وأربعة باذنجانات كبيرة.. بحثًا عن بيبيهات صغيرة يشاركنها اللعب.

والشائع.. أن كل طفل يرتبط بأمه، وأن كل طفلة ترتبط بأبيها.. فالطفل يرى أمه أجمل امرأة فى الوجود، والطفلة ترى أباها أروع رجل فى الدنيا كلها؛ ولذا يطلقون عليها أحيانا.. عقده.. عقدة أوديب للطفل.. وعقدة الكترا للطفلة.

وفى الستينيات، كان علم النفس والعقد والكلاكيع موضة إذا ظهر إنك مرتبط بأمك جدا، يقال لك إنت عندك عقدة أوديب.. ولكن هذه الموضة النفسية يبدو أنها انتهت.. هذا الغرام الاستثنائى بالأم والأب لم يعد موجودًا فى حياتنا لسبب بسيط.. لأنهم، أعنى أمهاتنا وآباءنا كانوا هم عالمنا الوحيد، وهم المصدر والمرجع النهائى بالنسبة لنا، أما أطفال اليوم فلهم ألف أم وألف أب، فهذا ابن الإنترنت وهذه ابنة الدش، ونحن ليس لنا دور سوى ان نشترى لهم هؤلاء الأمهات والآباء الجدد.. كما أننا أيضًا هزأنا أنفسنا أمام أطفالنا.. اتخانقنا مع بعض امامهم وعلّينا حسّنا ورزعنا الأبواب..

وحدفنا بعض بالشباشب.. فاختفى هذا الانبهار الطفولى بالأم والأب، الذى تربينا عليه.. كانت الحياة أشبه بنغمة ناعمة هادئة، ولم اسمع أمى تقولها أبدًا.. طلقنى.. ولم أسمع أبى يقولها أبدًا.. غورى.. لم تعايره فى يوم بأن موارده محدودة.. وكان يستحق المغايرة.. ولم يشعرها يومًا أنها أقل جمالاً من نجلاء فتحى، وهى بالفعل أجمل من وجهة نظرى طبعًا، فأنا عندى عقدة أوديب.

وحينما ذهبت إليه لاسأله ذلك السؤال التاريخى.. بابا.. أنا جيت منين؟. احضر ورقة وقلمًا.. واخذ يشرح لى الحقيقة بحذافيرها بصورة علمية جادة لا حياء فيها ولا تضليل، ثم مزق الورقة، وحينما سألته لماذا مزقها، قال لى: لان هذه الاشياء يجب أن تعرفها، وفى الوقت نفسه لا يجب أن نجعلها مشاعًا.

واليوم يدعو رجال التربية إلى أن يصارح الآباء والأمهات أبناءهم وبناتهم فيما يختص بالشئون الجنسية، والواقع أن هؤلاء الأبناء والبنات يعرفون عن هذه الشئون أكثر مما يعرف الآباء والأمهات.. ولذا لا استبعد أن يسأل أب ابنه فى المستقبل ما تعرفش يا بنى أنا جبتك منين؟

# علامات العبقرية

راقب طفلك جيدًا.. سجل كل حركة وكل همسة وكل ضحكة وكل بصة، فقد يطلع هذا الرضيع الذى لا يعرف سوى البكاء عبقرية فذة، وسيحرجك فهو أيضا يراقبك، خد بالك.. سيختزن كل أفعالك هذه فى ذاكرته، وحينما يصبح نجمًا أو عالمًا أو أديبا ستحاصره الصحافة والإعلام، وسيطلبون منه أدق التفاصيل عن حياته.. ورجلك حتيجى فى الموضوع.. راقبه جيدًا أو احترم نفسك أمامه..

والطفل العادى يستطيع أن يقيم رأسه بين الشهرين الثانى والثالث.. ويبدأ فى الضحك بين الشهرين الثالث والخامس.. ويتحسس اللعب بين يديه بين الخامس والسابع.. ويجلس وحده بين السابع والتاسع.. ويحاول الوقوف بين العاشر والثانى عشر، ويمكن أن يمشى بعد أول عام، وحينما يكمل العام أيضًا يمكن أن ينطلق ببعض الكلمات المفردة.. مثل أنت بيط.. يعنى أنت عبيط.. أو أنت مار يعنى أنت حمار، تلك الجمل البريئة التى تعبر عن وجهة نظر الطفل فيمن هم حوله..

ولكـن كل هذه الأمور نسبية، فإذا لم يضحك الطفل فى موعده لا تقلق.. وإذا تأخر في الكلام لا تتعجل.. فربما منحك الله طفلاً عبقريًا، وأنت لا تدرى، فقد كان الكاتب الإنجليزى المشهور أوليفر جولد سميث بليدًا أثناء التلمذة.. حتى أن أستاذه كان يعتقد أنه لم ير فى حياته أغبى من هذا الولد.. واللورد بيرون الشاعر الإنجليزى المذهل كان ترتيبه دائمًا الأخير فى الفصل، وداروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء كان والده يخجل منه، ويقول له: أنت لا يهمك فى العالم سوى إطلاق البندقية وتربية الكلاب وصيد الفئران.. ستصبح عارًا على نفسك وعلى أهلك.. وأينشتين معجزة القرن العشرين أخذ كحكة فى الشهادة وفى أى مادة؟. فى الحساب، وكانوا فى طفولته يطلقون عليه «النكبة». وهؤلاء جميعًا أذهلوا العالم كله..

وأنا حينما أعمل فلاش باك سريع على طفولتى.. أكتشف أننى لم أكن بليدا، و لم أخذ كحكة فى الحساب، ولم أكن متيمًا بتربية الكلاب.. وعليه يمكن أن تتصوروا الخيبة التى وصلت إليها، ومع ذلك فهى ليست قاعدة، فالأديب الألمانى الفذ «جوته» كان يعرف اللغات الفرنسية واللاتينية واليونانية، وهو لم يكمل التاسعة من عمره، هذا غير الألمانية طبعا.. بل إنه تكلم اللغة الأيطالية وهو يستمع إلى مدرس كان يلقنها لأخته.. ع الطاير كده.. ولكـن لا تيأس أيها العبقرى الذى لم تكتشف عبقريتك بعد..

فالعلماء فى جامعة لينوا يقولون إن النبوغ لا يظهر فى الإنسان إلا إذا بلغ السادسة.. والأربعين من العمر، يعنى كده وعليك خير تكون على وش وكيل وزارة.. المهم ألا تفقد حماسك، فهى تأتى من حيث لا تعلم.. وفجأة.. وبلا حسابات.. فكل الذين عاشوا وهم يظنون أنهم عباقرة.. لم يفعلوا شيئًا، بينما كان العباقرة الحقيقيون مشغولين بالفعل.. فيما جعلهم عباقرة.. قال أرخيمدس لأحد الملوك: اعطنى عتلة طويلة ومكانًا أضع فيه عتلتى، وأنا أزحزح لك العالم من مركزه.

# ضحيت هنايا فداه

أصيبت عائلة بكارثة فى النوة وتحطم البيت، وكان عندهم ولد صغير اسمه منعم أرسلوه إلى عمته بالقاهرة، وبعد أسبوعين جاءهم الخطاب التالى: «نعيد لكم منعم، أرسلوا لنا النوة» ولاشك أن ما فعله منعم فى بيت عمته كان أبشع بكثير مما فعلته النوة فى بيت والديه.. إن كل لعب الأطفال والعرائس والمراجيح ما هى إلا أكذوبة، صنعها أصحاب مصانع لعب الأطفال، فالطفل لا يتمتع بحق إلا حينما يلعب بأشياء الكبار.. فما أجمل من أن يضع يده على رف من الرفوف ويجيبه على الأرض.. وما أجمل من أن يلقى زلطة على التليفزيون فيحطمه تحطيما.. وهذا الفازات والتحف التى يشتريها الكبار.. يتساءل فى ضيق.. مافائدتها.. وينهال عليها حتى يجعلها من الحفريات، وهذا ما فعلته ابنتى التى لم تبلغ عامها الأول..

كان عندى تمثال لفينوس آلهة الجمال، وكنت أعتز به جدا.. وكانت فى شهورها الأولى تنظر للتمثال كثيرا وتتأمله بعمق، وفسرت

ذلك على أنه ميول فنية مبكرة عند البنت.. وما أن بدأت تحاول المشى.. حتى ذهبت إلى التمثال.. ولما كانت ابنتى لا تطيق وجود أى ست فى البيت حتى أمها. نظرت إلى فينوس بغل، وأعطتها دفعة محترمة قسمتها نصفين فصارت فينوس على يد ابنتى بلا ذراعين ولا رجلين أيضا.. وعلاقة الأطفال بالحيوانات علاقة غامضة ليس لها تفسير، فالأطفال يدعون خبثا أنهم يحبون الحيوانات، وما من طفل إلا بكى وتوسل لوالديه.. عاوز كلب.. عاوز نسناس.. عاوز قرد.. وما من أب إلا وتوسل لابنه.. عاوز أنام.. عاوز أنام.. عاوز أنام.

كان ماشيا فى الحديقة ووراءه أورطة من أولاده السبعة، كلهم فى أعمار متقاربة، ووقف الأب أمام قفص الدب وبدأ يتكلم فى وقار.. هذا الدب يا أولاد من النوع الذى يعيش فى الإسكيمو، وهو من فصيلة مفترسة.. ولكن فجأة يصرخ الدب.. ويجرى من القفص إلى الداخل.. كان ابنه تامر وهو من النوع الذى يعيش فى مصر، ومن فصيلة مفترسة أيضا قد لسع الدب بعصا على رأسه وجرى.. ليس خوفًا من الدب، وإنما من الحارس الذى أقسم أن يضربه.. وانتهت المشاجرة بأن أخذ الأب أولاده وانتقلوا إلى قفص الأسود.. وبدأ محاضرته الوقورة التقليدية.. هذا يا أوالاد ملك الغابة..

كان الأسد جالسا فى وقار بلبدته الرائعة وفجأة زأر زأرة مرعبة.. وأخذ يتلوى فى القفص.. وأصيب بهياج عظيم.. كان أحد الأبناء

وهو من فصيلة الثعالب بالتأكيد قد ألقى للأسد بقطعة لحم بداخلها قرن فلفل أحمر نار.. وأخذ الأب أولاده ويافكيك.. ليس خوفا من الحارس هذه المرة.. وإنما من الأسد الذى رفع حالة الطوارئ فى الحديقة. وانهال الأب على وجه ابنه الشقى.. قلت ميت مرة لما نشوف أسد ما نضايقوش.. حصل ولا لأ؟! فأجاب الولد باكيا.. هوه مش لو خرج من القفص حياكلنى؟! أجاب الأب: أيوه هياكلك.. فقال تامر: خلاص، فقال الأب محاولا مسايرة النطق الطفولى.. بس هوه ما حاولش إنه ياكلك ياتامر.. فأجاب تامر.. يعنى استناه لما ياكلنى.. هنا.. مر بهم أحد الحراس فى الحديقة فسأله الأب محاولا تغيير الموضوع.. واللهى يا أخى لو سمحت «فين القرود» الأولاد عاوزين يتفرجوا عليهم. فرد عليه الحارس استنى شويه.. زوار الجنينه كلهم بيتفرجوا على عيالك أما الناس تمشى.

تلك هى تصرفات بعض أطفالنا الأبرياء مع حيوانات آمنة داخل أقفاصها.. فما بالك بحيوان تحضره إلى منزلك ليعيش معهم.. فهذا طفل يمسك بذيل كلب صغير ويدليه من البلكونة، والكلب يصرخ بلا جدوى.. وهذه قطة غلبانة يتقاذفها اثنان من الصبية فى فرح وسرور. وهذا يضع كتكوتا مسكينا فى الهون ويدق عليه.. وأمه تتعجب من نقصان عدد الكتاكيت فى العشة.. وهذه وزه لفظت أنفاسها الأخيرة على يد صغيرة، كانت تدعى أنها تلعب معها.

أما الطامة الكبرى فهى الخرفان، التى تضطرها الظروف إلى

الإقامة فى البيت، قبل الذبح فى عيد الضحية. . أقسم أنها لو تكلمت لقالت أرجوكم اذبحونى الآن. فالأطفال تمتطيها فى سعادة وتنزل فيها ضرب بالعصا. . وتشد قرونها وتقرصها. . وهذا خروف أعور يا حول الله يارب، والجانى لم يتعد عمره سبع سنوات، وأداة الجريمة قلم رصاص. . وهذا خروف أعرج ضربه مجرم فى السادسة من عمره على قدمه برجل الكرسى وجرى. . وهذا خروف حاول أن يدافع عن نفسه، وفكر فى أن ينطح. . واستطاع الولد العفريت بمهارة مصارع ثيران محترف أن يجعله ينطح الحائط، وكاد أن يموت الخروف المسكين. . فى الصباح الباكر جاء الجزار بالسكاكين. . وأمام الباب. . جرى عليه الخروف سعيدا قائلا. . إنت كنت فين يا أخى من زمان. . رقبتى أهيه. . سَمِّ. . وخلصنى. . ياللاه واتعملت الشوربة والفتة. . وجلسنا لنأكل. . ولكن أين الأطفال؟ كان كل منهم قد أغلق على نفسه حجرته وانفجر باكيا بكاء مرا على فراق الخروف. . ولم يرض أى منهم أن يتذوق قطعة واحدة من لحمه. . ما أجمل الطفولة. . كل سنة وأنتم طيبون.

# ألفين... وواحد صاحبى

كل سنة وأنتم طيبون.. عشنا وشفنا وقُلنا.. ألفين وواحد.. وهكذا دخل القرن الواحد والعشرون فى الخدمة.. وانتهى النزاع حول ما إذا كانت سنة ألفين التى مرت كالبرق هى المتممة للقرن العشرين، أو هى غرة القرن الواحد والعشرين، وهى مشكلة غالبًا ما تحدث فى بدايات القرون ولكنها تتكرر؛ لأن مثيرى المشكلة فى بداية القرن الماضى أغلبهم فارقوا الحياة، وتبقى المشكلة هى التى على قيد الحياة.. وأنا أتصور أن عاما واحدا فى خضم الحقب والقرون لا يمثل شيئًا.. خليه علينا ياسيدى.. عندى عندك.. واحد.. واليوم نقولها.. ألفين.. وواحد، ولكن ماذا يخبئ لنا هذا الواحد؟ ماذا يحمل لنا فى جعبته؟ إن لفظة واحد.. لفظة تحمل الكثير من الغموض والتوجس والتخفى.. فهل سيكون واحد.. صاحبى.. يأخذنى بالأحضان ويطبطب عليا أم سيكون واحد تانى؟!.

أنا لا أخشى الألفين.. فقد عرفتهم.. قرأت عنهم.. سمعت.. شاهدت، بل وعشت أيضا بعضهم، ولكننى لا أعرف شيئا عن هذا

الواحد.. ربنا يجعله خفيف علينا جميعا.. ونحن على فكرة أول من اهتم بحكاية التقويم وتنظيم الأيام والسنين، حينما كانت الدنيا كلها تعيش فى هَطَل لا تعرف أخر الشهر من أوله.. تنظر إلى السماء فى استغراب وبلاهة، شمس تشرق من هنا وتغرب من هناك.. أمطار تهطل هنا وتسقط أوراق الشجر هناك، ومَحَدش فاهم أى حاجة.. إلى أن فعلها المصرى القديم العظيم.. جلس مع نفسه وراح يدون ويحسب، ثم أعلنها للعالم أجمع..

من هنا نجر نَخط.. من هنا يبدأ التاريخ، وصار الإنسان بعدها كائنا تاريخيا.. فأنت تعيش بين تاريخين.. تاريخ ميلادك وتاريخ الوفاة بينهما تاريخ ثالث لا يقل أهمية عنهما.. تاريخ جوازك طبعا.. وهذا الجنون التاريخى، هو الذى جعل البعض يسجل على ظهور الكراسى فى أتوبيسات النقل العام.. للذكرى الخالدة.. محمود سيكا.. ويكتب التاريخ.. ويأتى بعد ذلك راكب آخر لا يعرف محمود سيكا وإنما يضايقه محمود بتصرفه اللاحضارى.. فيضيف إلى اسم محمود سيكا صفة «أبيحة» عقابًا له.. ويكتب التاريخ..

وعليه صارت النتيجة السنوية قطعة أكسسوار أساسية فى كل بيت وفى كل مكتب.. وهى أول لقطة تقع عليها عيناك كل صباح.. فتنزع الورقة أو تشطب على اليوم، الذى مر أو تضع دائرة حمراء على الأيام التاريخية حتى لا تنسى.. ولكن لماذا نطلق على «الروزنامة»

بالفارسية أو التقويم السنوى (بالعربية) أو الكالندر بالإنجليزية.. لماذا نطلق عليها النتيجة (بالعامية)؟ هل هذا ينبع من أمنية بداخلنا أن يصل جهدنا وسعينا وتعبنا طول السنة الماضية إلى نتيجة فى العام الجديد؟، هل لأن السنة هى المعيار الوحيد، ووحدة القياس الأساسية التى نعتمد عليها فى بلوغ أى شىء.. فالسنة الدراسية تنقلنا إلى مرحلة جديدة.. والسنة المالية هى التى نرتب فيها أمورنا وملفاتنا ودفاترنا.. والجرد سنوى.. والدورى سنوى والكاس سنوى..

ولكن هذه النظرة السنوية للحياة أعتقد أنها يجب أن تتغير خصوصا بعد تفتيت الثانية على يد زويل واكتشاف الفيمتوثانية.. فالإحساس بالوقت صار مرعبًا.. ولا أبلغ من التدليل على عدم الإحساس بالوقت من حكاية اثنين مساطيل، كانا يشربان معا سيجارة ملفوفة فى إحدى دور السينما.. هذا يأخذ نفسًا ويقول للثانى.. مساء الخير.. فيأخذ منه السيجارة ويأخذ نفسا.. و.. مساء الخير، وكبس البوليس على أحدهما، وفى يده السيجارة وقبض عليه وأودع السجن، وظل فيه خمسًا وعشرين عاما.. وخرج من السجن بعدها وأخذ يبحث عن صديقه الذى لم يشعر بما حدث.. ولما أعيته الحيل فى أن يجده.. دخل السينما فوجده.. فى مكانه.. فجلس وراءه وأخرج سيجارة وناولها له قائلا.. مساء الخير فأخذها منه صديقه فى استياء.. وقال.. إيه ده.. ساعة!!.

ولذا أنا أرى أن ننظر العام الجديد بطريقة جديدة.. نحمل فيها

ستوب ووتش.. انهض من فراشك وأذهب إلى عملك، وتناول الأيام كما تجئ واضغط على الأستوب ووتش أمام الساعات الحية.. وأوقفها أمام الساعات الميتة الضائعة.. والساعات الحية ليست هى التى تعمل أو تنجز فيها فقط، وإنما الحياة فى أشياء كثيرة.. فى لحظة حب حقيقية.. فى لحظة صدق مع نفسك أو مع الآخرين.. بل حينما تلعب.. أو تتمتع بأى شىء، بل إن المرء يحيا حينما ينام.. فأنت بعد يوم شاق حينما تنام تصبح أشبه بالمولد الكهربى الدائر فى سكون.. وإذا سألتنى أنا متى أحيا؟ أقول لك.. حينما أضحك من قلبى.. وحينما أجوع جوعا حقيقيا وحينما أنام نوما هنيئا.. وحينما أقرأ مسرحية أو أشاهد فيلما.. وحينما.. أرد على خطابات القراء.. كل سنة وأنتم طيبون.

# الرنين والحنين

تحتفل الدنيا كلها، هذا العام ٢٠٠١ بمرور مائة وخمس وعشرين سنة على اختراع التليفون.. قبل هذا التاريخ لم يكن أى شىء حولنا يرن.. وإذا ذهبت سيادتك مشوار صغير لحد بنها، فأعلم أننى فقدت أثرك إلى الأبد إلا إذا شاء القدر أو المصادفة أن نلتقى مرة أخرى.. وقال الشاعر.. قد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا.. ولذا كان الفراق أيامها يعد بحق فراقًا حافلاً بالدموع والآهات والنحيب.. أما اليوم فالفراق بارد مثله مثل اللقاء.. وفكرة استخدام الأسلاك فى نقل الأصوات البشرية، بدأت فرنسية على يد «بورسل» ثم ألمانية على يد «رايس»، ولكن كليهما فشل فى محاولته.. وفى نيويورك قبض البوليس على رجل اسمه كوبر سميث لمحاولته ابتزاز نقود البسطاء، وذلك بتقديم آلة ادعى أنها تنقل صوت الإنسان عبر الأسلاك، وقد سمى هذه الآلة تليفون.. شفتوا النصب والاحتيال؟! واعتبر كوبر سميث وقتها دجالا وعومل معاملة الشيخة نادية..

وبعد سنوات قليلة تنافس اثنان فى نيويورك على اختراع التليفون

احدهما اسمه «جراى» والثانى اسمه «جراهام بل»، وكان الحظ مع الثانى؛ إذ تمكن من تسجيل اختراعه قبل منافسه بثلاث ساعات فقط.. وجراهام بل هذا كان معلما للخرس وأحب فتاة خرساء من تلاميذه.. وربما أراد أن يأكل ودنها فاخترع التليفون، وكانت لحظة تاريخية بحق حينما كان جراهام بل يقوم بتجربته على الجهاز، وكان يشتم مساعده الغبى ويلعن سنسفيل جدوده.. وخرج المساعد من الحجرة الثانية ليس غاضبا لما سمعه، وإنما يكاد يموت من الفرح وهو يقول له.. مستر بل لقد سمعت كل كلمة نطقت بها بوضوح وتعانقا عناقا حارا.

وجرت أول محادثة بين مكانين بعيدين عام ١٨٧٨ بين بوستن وكمبردج فى أمريكا. والمسافة بينهما ٢ كيلو.. وكان أول دليل تليفون لمدينة نيويورك عبارة عن صفحة واحدة، بها ٢٧١ اسما فقط.. وقد لقى «بل» فى حياته ما يليق به من حفاوة وتكريم، وأقيمت له تماثيل عديدة، ولما مات عام ١٩٢٢ أوقفت التليفونات جميعها فى أمريكا بضع دقائق حدادًا عليه.. وإذا كان جراهام بل قد فعلها من أجل فتاته الخرساء التى أحبها.. فلم يكن يتصور أن فتياتنا نحن لسن خرساوات، وأن فاتورة التليفون التى ندفعها ـ الرجال ـ غالبًا ما تهدد الحياة العائلية.. ولم يكن يتصور أيضًا أن اختراعه هذا سيرطرط ويملأ الدنيا كلها.. فهذا ميكانيكى يطلع من تحت السيارة

بشحمه ليتناول الموبايل من صبيه.. مين ياض اللى طالبنى.. يرد الصبى.. ده البيت يا أسطى، وهذه شغالة جاءت لتنظف الشقة.. ثم فجأة تترك الخيشة وتجرى لترد على الموبايل، وصار عصرنا عصر جنون التليفون.. المناسبات والأعياد.. تليفونات.. فى المناسبات السارة والمناسبات السيئة. لازم تليفون وإذا طلبتنى لازم أطلبك طبعا، وإذا لم أطلبك تلومنى.. طيب حتى تليفون ياراجل، وبرامج التليفزيون.. كلها صارت برامج تليفونية، يطلع لك الرقم على الشاشة ويقولك اتصل يالله.. أضرب النمرة ياعبيط.. حتى صار التليفزيون.. تليفونيون..

إنه الرنين الذى يحيط بنا فى كل ثانية، وفى كل مكان... فى الصحراء.. فى الطيارة.. فوق قمة جبال الهملايا.. وبعد كل هذا تغنى لطيفة.. ماوحشتكش، وأرد عليها طبعا يالطيفة لم توحشينى ومتى توحشينى.. وهى تكلمنى فى كل ثانية وفى كل لحظة. إن الشمس نفسها تغيب.. فما بالهم لا يغيبون.. لقد فعلها جراهام بل، قضى على الشوق والحنين حينما اخترع الرنين.

# أبـــورنـــة

كل اختراع استهلاكى جديد يشطر المجتمع إلى قسمين، فقديما حينما كان وابور الجاز هو وسيلة الطهى الوحيدة الشعبية، هذا بعد مرحلة الكانون والطهى بالخشب والفحم، وظهر البوتوجاز.. أصبح البوتوجاز هو دليل البيت الهاى.. وصار الناس قسمين: ناس عندهم بوتوجاز وناس معندهمش.. وكانت الأسرة تتحول إلى مظاهرة عدائية ضد الأب المثقل بالإعباء والمصاريف، والكل ينادى بأن يدخل بيتنا البوتوجاز.. وكانت أقلنا مطالبة به هى أمى المستفيدة الوحيدة منه؛ لأنها أدرى بظروف زوجها.. أما نحن فلا نطيق أن يدخل البوتوجاز بيت الجيران، ويظل بيتنا شغال على الوابور، ونظل نقدم لبابا المبررات الدرامية الواهية.. هو ـ إحنا يعنى عاوزينه ليه؟ مش عشان نريح ماما، قال يعنى إحنا مريحينها قوى ـ ويقول أخى الأكبر، وبعدين الوابور خطر ويمكن يهب فى وشها.. ونرد جميعًا.. آه يمكن يهب فى وشها، برغم أنها عاشت أكثر من عشرين سنة تطبخ عليه وماهبش.. ولكننا فى النهاية نريد البوتوجاز وخلاص.. ويطلع

البوتوجاز بتاع المصانع إياه.. ووقفنا ننتظره فى البلكونة على أحر من الجمر، وظل أبى يسدد فى أقساطه مدى الحياة.

وظهر التليفزيون وكان أعجوبة الأعاجيب.. وفى عمارتنا كان هناك تليفزيون واحد عند جارنا عم أمين، وأشيع أيامها أنه بيتاجر فى الحشيش، وإلا كيف استطاع أن يشترى التليفزيون، والذى زاد الطين بلة.. أن تليفزيونا آخر دخل العمارة فى بيت طنط أم بوسى، التى لا تزيد عنا فى شىء.. زوجها موظف مثل أبى.. وأولادها لايزيدون عنا فى شىء.

وذهبت إليه.. وأنا مشحون.. وأمسكته من كتفه، وقلت له: بابا.. عاوزين تليفزيون!!

ونظر لى ابى نظرة الكفار لمن صبأ، وقال فى ضيق انتوا مش بتروحوا تتفرجوا عند طنط أم بوسى، قلت له أخر مرة جوزها قفل التليفزيون فى نص الفيلم.. يرضيك يتقفل التليفزيون فى وش ابنك.. وبدأنا نبحث أنا والعصابة «إخواتى» عن مبررات نقولها لبابا.. مبررات واهية مثل مبررات البوتوجاز.. ولأن أبى كان متدينًا لا يحب الرقص ولا الخلاعة، فدخلنا له من هذا المدخل.. الله يابابا على القرآن فى ختام الإرسال.. ولا الأذان بصوت الشعشاعى ولا الأخبار.. حتى نوفر الجرايد اللى بنصرف فيها دم قلبنا دى، وكان أبى مغرمًا بالسمك، فأخذنا نحكى له عن برنامج مذهل يعرضه

التليفزيون اسمه عالم البحار، إلى أن جرى ريقه ورضخ أبى.. وجاء التليفزيون، وانتقلنا بقدرة قادر من حزب اللى معندهمش تليفزيون لحزب اللى عندهم.. وهذا بالضبط مع حدث مع الفيديو.. والثلاجة والغسالة.. وغيرها.

وأخيرًا جاء الموبايل.. وانقسم المجتمع كله كالعادة.. ناس عندها موبايل وناس معندهاش.. نجلس على القهوة.. وكل منا يضع موبايله أمامه.. ست موبايلات على الترابيزة.. لا مكان للشاى والقهوة ولا حديث سوى عن أنواع الموبايل.. والجديد.. والصغير واللى بيتهز.. وهكذا أصبحنا فرقة «الموبايلون المتحدون».. ولكنه مكلف.. الفواتير نار.. ولكن هل يعقل أن أدخل عليك وإيدى فاضية.. يعنى معاييش موبايل.. منظرى يبقى إيه بس.. ناس ولاد حلال دلونى على الكارت.. قالولى الكارت يلم الليلة.. أديك عارف بتتكلم بكام.. هنا انقسم الناس إلى نوعين ناس تطلبك وتتكلم.. وناس تديك رنة.. وصديقنا مصطفى حريص جدا. لم يطلب مخلوقا منذ أن اشترى الموبايل.. إنه فقط يديك رنة.. وينتظر أن تتصل به إنتا وتدفع أنت ويتخرب بيتك أنت.. وإذا كنت إنسانا وطلبته بعد الرنة.. يتعامل مع المكالمة معاملة الواد الفييس اللى ما يهموش ويرغى ويلت ويعجن ويحكيلك حاجات، حكاها لك قبل كده.. هو دافع حاجة؟ ويقال إن مصطفى خبطته عربية وهو يعبر الطريق.. فطلب الإسعاف على الموبايل.. وإدالهم رنة.. الغريب

أن الإسعاف عرفت.. قالوا ده أكيد درش.. ماله كفا الله الشر.. ومن فرط غيظنا من مصطفى ونجله، أطلقنا عليه «أبو رنة» وقررنا الانتقام منه.. دخل الحمام فقمنا بتغيير الكارت الذى فى تليفونه ووضعناه فى تليفون واحد منا.. والعكس.. وطلبناه من كارته هو.. وظل يعيد ويزيد.. وصديقنا الذى يكلمه مصر على أن يسمع أخر نكتة وأخر خبر وأخر فزورة.. ومصطفى ملعلع..

فى النهاية قال له صديقنا طيب اسمع إنتا دى.. عارف أنا بأكلمك منين.. من الموبايل بتاعك.. هنا تجمدت ملامح وجه مصطفى، ونظر إلى الموبايل الذى فى يده.. ودخل صديقنا وأعطاه الكارت الخاص به وانفجرنا فى الضحك.. ولكن مصطفى أخد الموضوع جد.. وثار.. وغضب وترك القعدة.. وأقسم ألا يكلم أيًا منا بعد ذلك.. حتى الرنة لم يعد مصطفى يرنها لنا.. وهكذا قسم الموبايل الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم يطلبك ويكلمك وقسم يديلك رنة.. ومصطفى.

# إذا لم تضحكوا الآن...

التليفون المرئى جاى جاى.. وموبايلاتنا هذه التى نتباهى بها ستصبح مثل جهاز الفونوغراف، الذى غنت فيه منيرة المهدية «نويت أبيعك خلاص نويت»، وهى الأغنية نفسها التى سأغنيها لجهاز التليفون المحمول الخاص بى حين يطلع التليفون المرئى.. هذا إذا وجدت أحدًا يشتريه على سبيل التحفة. وكرجل لا علاقة له إطلاقًا بالإلكترونيات، وأبيض ياورد فى كل ما يتعلق باللاسلكى، فمن واجبى أن أقدم للسادة العلماء فكرة عن التركيب المعقد والدقيق لجهاز التليفون المرئى. ولا أحب أن يتناولوا أفكارى العلمية هذه باستهانة أو باستخفاف لمجرد أننى كنت قسم أدبى.. فهذه نظرية قديمة.. وما دام مسموح للعلماء بتذوق الأدب بل وكتابة الشعر أحيانًا.. وما دام محلل للدكتور زويل أن يتكلم عن أم كلثوم وهو العالم الفذ.. هل يحرم على كاتب مثلى أن يجتهد فى بحث علمى يمكن أن يؤدى إلى قفزة علمية مهولة..

استسمحكم قليلاً.. أن تدخلوا معى إلى معملى المتواضع بين الأجهزة المفكوكة والأسلاك والمبعثرة.. والكتب والمراجع.. وأنا

شعرى منكوش ومستغرق تمامًا فى جهاز تليفون محمول قمت بفكه، وأحاول جاهدًا أن أدخل الكارت فيه ومش عارف..

وهذه المشكلة العويصة لا تذكر بجوار المعضلات التى واجهت أجدادى أمثال أديسون وجاليليو يرحمهما الله، أستأذنكم قليلاً لألقى نظرة على كتاب الفيزياء للصف الثانى الإعدادى عن الفلزات، والفلزات هذه بالذات هناك مشكلة بينى وبينها.. ليست مشكلة شخصية بالطبع، ففى محراب العلم يجب تجنب كل الأمور الشخصية تمامًا.. وإنما مشكلتى معها أننى حينما درستها لأول مرة لم أفهمها.. ولكننى بمجرد ما أن درستها مرة أخرى.. لم أفهمها على الإطلاق، وهذا ما جعل مدرس الفيزياء ينصحنى لوجه الله.. أن أدخل أدبى.. ولكننى مع ذلك لم أيأس.. فمن لم يفز بالفلزات فاز بغيرها.. وعليه قررت أن أطرح عليكم ـ سادتى العلماء الأفاضل ـ فكرتى عن التليفون المرئى بشكل نظرى، تاركًا كل جهدى للإنسانية كى تستفيد به.. والأساس فى العلم هو الفكر..

وسقراط إحقاقًا للحق هو الذى ألهمنى بالفكرة، حينما كان يتحاور مع تلاميذه.. وقد أهمل سقراط تلميذا كان جالسًا فى صمت ينظر له بعتاب لأنه لم يشركه فى الحوار.. هنا قال له سقراط جملته الشهيرة.. أنت لم تتكلم لأراك.. قلت لنفسى.. هذا هو التليفون المرئى.. وهو كاميرا وتليفون وسماعات وليزر.. كل هذا فى وقت

واحد.. ثم إنه يفتح من تلقاء نفسه.. أنت لا تفعل شيئًا.. مراتك تطلبك.. فينفتح الجهاز بشفرة معينة، وتتحرك الكاميرا أوتوماتيكيا نحوك لتنقل صورتك لها بالصوت والصورة.. وتحولها إلى شكل مجسم بالليزر.. يطير عبر الأثير.. لتراك زوجتك أمامها فى البيت مثل المسخوط تحرك يديك وعينيك.. وتنفعل.. فى صورة مجسمة مصغرة منك.. وفى الوقت نفسه ترى أمامك زوجتك على المنضدة واقفة أو جالسة حسب وضعها وهى تقول لك.. ح تيجى إمتى؟!

وبالتالى أهيب بكم أيها الأزواج.. أن تأخذوا حذركم.. فالتليفون المرئى سيصبح أشبه بكبسة بوليس الآداب.. وكل الأكاذيب والاختراعات التى نخترعها نحن الأزواج سيبطل مفعولها تمامًا.. لا عجلة فرقعت.. ولا روحت أعزى فى واحد صاحبى فهى لن تصدق إلا ما تراه بعينيها.. كان جالسًا فى المقهى مع أصدقائه.. وفجأة وجد زوجته واقفة فوق الشيشة وهى تصرخ فيه.. قاعد فى القهوة وسايبنى؟! ونظر حوله فى خجل من هذه الفضائح التى فى الشارع.. وقال لها.. إهدى مش قدام الناس.. كان صديقه هو الآخر واضعًا زوجته على يده، ومنهمكا فى حديث طويل حول طلبات العيال.. ولما فاض بالزوج الذى تكلمه زوجته وهى فوق الشيشة.. نادى على الجرسون وقال.. زودٍّ لى النار على الحجر.. واختفت الزوجة ساخطة لاعنة.. وأتخذ الزوج قراره بالانفصال..

كلم المأذون.. فظهر المأذون على تابلوه العربية، وقال.. السلام عليكم.. قال الزوج أنا خلاص.. ح أطلق.. أنا جاى لك.. واختفى المأذون..وطلبته بعدها زوجته على المرئى برضه.

وظهرت زوجته معتذرة مرتدية بالطو ثقيلا وسألته.. إنتا لوحدك فى العربية مش كده.. فأجابها باقتضاب.. أيوه لوحدى فخلعت البالطو.. و.. تراجع طبعًا عن حكاية الطلاق.. ولكنه حينما ذهب إلى البيت وجد المأذون جالسًا.. ليس المأذون نفسه بالطبع.. أقصد يعنى كان ع التليفون.. فأنهى المكالمة بسرعة. وآخر كان واقفًا يكلم صديقه.. وفجأة انتفخ جيبه.. فوضع يده وأخرج من جيبه ابنه عمرو، وصرخ فيه.. قلت ميت مرة ما تلعبش بالتليفون عمال على بطال.. بتطلبنى ليه دلوقتى.. وبكى عمرو.. واختفى.. يبدو أنه أنهى المكالمة.. وقال الصديق.. يا أخى ما تزعلش الواد وفجأة ظهرت ابنته هالة على كتفه.. وهى تقول وحشتنى يا بابى فابتسم الصديق، وقال عيال بتلعب يا أخى..، وستتوقف نهائيًا المعاكسات التليفونية التى لم يقض عليها إظهار رقم الطالب.. فهذه نمرة كشك سجاير وهذه نمرة سوبر ماركت،، إنما بأه مع التليفون المرئى.. ح تجيب الطالب من قفاه..

وأمام الثورة الاجتماعية التى سيحدثها التليفون المرئى، ستختفى كل الخرافات الخاصة بالأشباح والجن التى تسيطر على العقول..

فأنت فى أى مكان وفى أى زمان معرض؛ لأن ترى أى إنسان فجأة ـ يطلع لك من جيبك ـ من شنطتك.. وإذا طلع لك عفريت من قمقم وقالك.. شبيك لبيك عبدك بين إيديك لن تصاب بالذعر.. ولن يغمى عليك.. وإنما ستقول له ببساطة.. اطلبنى فى وقت تانى.

أعزائى.. هذا ليس طقطقانًا ولا تخريفًا، فالعلم نفسه لا يستطيع أن يتصور ما يمكن أن يحدث بعد عشر سنوات فقط.. فهو يتحرك بسرعة جهنمية.. ومقالى هذا سيصبح ساخرًا بحق سنة ٢٠٥٠ فإذا لم يضحككم الآن، فأنا أعرف أن أحفادى سيموتون من الضحك، حينما يقرأونه ويقولون.. كم كان عبيطًا جدنا هذا..

# الموبايل على ودانك والساندوتش فى إيدك

فى بداية القرن العشرين.. كانت الجملة الموضة الشائعة فى كل الصحف وعلى كل الالسن.. «عصر السرعة» فقد كان ظهور القطار والسيارات فى الشوارع مثيرًا بحق، وبعد أن كانت السرعة القصوى لاى شىء لاتزيد عن حركة الدواب والماشية والحمير - صارت الموتورات تنهب الأرض نهبًا.. وعليه فالمواعيد بين الناس لم تكن بالدقة التى نتعامل بها الآن.. فإذا أردت أن ترانى فى بداية هذا القرن وحبيت تأخذ منى ميعاد..

يكفى أن تقول لى أشوفك الأسبوع اللى جاى.. هكذا فقط وأنا طبعًا رايق.. أظل الأسبوع بطوله فى انتظار سعادتك فأنت لا تملك نفسك.. إنت جاى على حمار وكل حمار وله ظروفه.. وبدأت السرعة تزيد زيادة مهولة.. طيارات.. صواريخ.. نفاثات أسرع من الصوت، وبدأ البنى آدم نفسه يحاول أن يجارى العصر ويغير من عداد سرعته القديم المتراخى هذا، وجاءت الحرب العالمية ومات الملايين من البشر.. وبدأ الإنسان يجرى أكثر.. يلهث.. يريد أن

يلحق بشيء ما هو نفسه لم يعد يعرفه. . أشوفك يوم الخميس الساعة خمسة وخمسة. . خمسة وعشرة أنا مش فاضيلك. . إحنا لسه ح نقعد. . إيه الموضوع. . ناكل إيه يابا. . كفاية حلل وأطباق وطواجن وقعدة وغموس. . إديها ساندوتش ع السريع. . وما هو الساندوتش؟ لقمة كبيرة وغموس كثير وتأكلها ع السلم. . فى الشارع فى العربية، والموبايل على ودانك والساندوتش فى إيدك. . أجرى. . مفيش وقت. . ساعة بتكلمنى فى التليفون. . ياللاباى. . أخلص. . ده لسه ح يسبل ويحب. . كبَّر دماغك ونَفَّض. . أنزل من على ودانى. .

وركبت الأغنية روح العصر، وحينما غنى عبد الوهاب. . جفنه علم الغزل. . بإيقاع سريع. وقتها طبعًا، ثار أصحاب المدرسة القديمة على هذه الأغنية الشبابية. . أى ياسى عبده حد بيجرى وراك على مهلك شوية. . وجاء عبد الحليم. . واسبقنى ياقلبى اسبقنى. . لا لا. . ما توصلش لكده. . ياعم اركز شوية اهدأ. . وفى نهاية القرن أتى رواد الأغنية الشبابية حميد وعمرو وفؤاد. . الأغنية طلقة. . فو. . يادوب ح نسمعها. . تلاقيها خلصت سرعة مجنونة مرعبة، والنقاد يهاجمون برضه. . إنهم دائما على ما يبدو سرعتهم أقل من المطربين بجيل على الأقل. . لا أعلم لماذا. .

وفى سنة ٢٠٢٠ ستطلع أغانى أخرى أسرع بالتأكيد. . يسأله. . سمعت الأغنية الأخرانية؟ يرد. . هايله بس مالحقتش اسمعها. .

عدت هوا.. وستزداد سرعة الأفلام أيضًا سيجرى الفيلم أمامك بإيقاع ساخن سريع متلاحق.. إذا فاتك مشهد خلاص اللى يفوته مشهد محدش حيحكى له يهمس لزميله فى السينما.. إيه ده.. هو اغتصبها يرد: ما خدتش بالى.. يسأله.. يعنى هيه زعلت لما اغتصبها ولا كانت عاوزاه يغتصبها.. ولا مافرقش معاها.. يرد.. ياعم دماغك.. مفيش مشاكل.. قشطة.

ماذا يحدث فى الدنيا.. وكأنها راكبها ميت عفريت.. من الذى ضغط على زرار التقديم السريع؛ حتى كدنا نكفئ على وجوهنا.. سباق رهيب محموم.. الكل يجرى ويريد أن يسبق.. هذا يلهث وراء سبق صحفى.. وآخر يموت حتى يصل أول واحد، ويحقق سبقًا فى أى حاجة.. المانشيت أهم من الموضوع والعنوان أهم من الفيلم.. لاوقت للقراءة.. إنها أيام التصفح.. ومخاطبة القارئ تختلف عن مخاطبة المتصفح.. أمسك الجريدة.. وفر.. لا تفر هاربًا.. أعنى فر الأوراق.. العناوين وخلاص.. انتظر.. نتوقف لحظة عند الأخبار المجهلة.. عمايل الفنانة الفلانية فى شقة الفنان الفلانى بعد منتصف الليل.. تفتكروا تطلع مين؟!

وتتوالى التخمينات.. لأ ياعم مش اللى فى دماغك، بيقول ساكن فى الهرم دوكها فى فيصل.. هنا أردت أن أشارك أنا أيضًا من نفسى وألقيت بخبر مجهل أخر.. كاتب ساخر من أعظم الكتاب

الساخرين واشترك مع العقاد فى الهجوم على شوقى بيه.. من هو؟! ونظروا لى جميعًا واجمين، وكأننى اتحدث اليابانية أمامهم بطلاقة.. قلت لهم أقربها لكوا شوية.. اسمه إبراهيم تحولت نظرتهم نحوى إلى نظرة عدائية.. قلت مسرعًا إبراهيم عبد القادر المازنى.. قال أحدهم ساخرا: المازنى.. وده إيه بأه نظامه.. قلت لهم.. ده نظامه بأه غير نظامنا إحنا خالص.. وانفضت الليلة بسرعة وماذا فى أيامنا هذه لا يتم بسرعة.. الزواج بسرعة.. والطلاق بسرعة.. والحب بسرعة والكراهية أسرع، النجاح سريع، والفشل أسرع.. ولكن عفوا.. أريد أن التقط أنفاسى.. أن أتأمل أى حاجة.. أن أتعمق فى أى شىء.. أن أتلذذ بكباية شاى.. أن أقرأ مقالاً طويلاً عميقًا رائعًا، به وصف وتحليل ومتعة وهدوء وبصيرة.. لا يثيرنى العنوان بقدر ما يدفئنى المضمون.. تصوروا فى عدد من مجلة كل شىء سنة ١٩٢٥م كانت صورة الغلاف للدكتور طه حسين بنظارته السوداء وذقنه الطويلة المدببة وشعره المفروق من الجانب الأيمن أظهرتها لفتاة من الجيل الجديد.. قلت لها عارفة مين ده قالت لى د. أحمد زكى!!

كان طه حسين هو نجم الغلاف الأول، فكم يبيع العدد الذى يضعه على الغلاف فى أيامنا هذه؟! والمشكلة الثانية أن الدكتور طه حسين والعقاد وغيرهما شخصيات مستقرة راسخة، لا تستطيع أن

تفرّها فهل تستطيع أن تنظر إلى الأهرامات نظرة عابرة لا تتوقف أمامها ولا تتأمل؟! وبالسرعة نفسها انفض عصر السرعة.. مر كأنه لمحة خاطفة.. أيامه كما يقولون ليس بها بركة.. أعتقد أن المؤرخين لهذا العصر فى مأزق.. ماذا سيكتبون؟! هل كان الجبرتى والمقريزى وغيرهما سيلاحقان هذا العصر المجنون الطائش؟! أشك.

# الأنفية الثالثة

يروى أن نابليون قال ذات مرة: «حينما أرغب فى أداء عمل مهم، فإننى أكلف به عادة رجلاً ذا أنف طويلة».. وأعتقد إذا صحت هذه الرواية أن نابليون كان متأثرا بما كان يؤمن به القدماء، من أن الأنف هى الطريق المؤدى إلى نبع الحياة، وأن أصحاب الأنوف الطويلة أكثر جلدًا واحتمالاً فى مواجهة الأخطار. ولكننى أؤكد لكم أن مقولة نابليون هذه صحيحة مائة بالمائة، وحنروح بعيد ليه.. مناخيرى أهيه أمامكم تلك التى كان مدرس اللغة العربية يعايرنى بها فى الفصل، وهو يشير نحوى.. قول أنت يابو مناخير طويلة.. فكان الفصل يضج بالضحك، فلم يكن أحد من الزملاء عنده أدنى فكرة عن مقولة نابليون الرائعة هذه..

وحينما هممت بأن أشكو لأبى يرحمه الله سخرية الأخرين من أنفى.. لم أستطع.. لأن مناخيره كانت طويلة قوى، فلم أشأ أن أعقده هو الآخر، ولذا كنت دائمًا أحرص فى جلستى أن أضع يدى على أنفى.. وزجرتنى أمى قائلة: شيل أيدك من على مناخيرك..

طول ما أنت بتشدها كده ح تطول.. فرفعت يدى عن أنفى، ولكنى كنت أسترق النظر إليها أحيانا.. فتحول عيناى إلى الداخل.. وأنا أرى كوز درة طالع من وشّى، وظللت طوال حياتى أعتقد أن الأنف عورة.

وعرفت بعد ذلك أن سيرانو دى برجراك كان شاعرا.. وكان عاشقًا، ولكنه كان طويل الأنف بصورة مضحكة.. ومنعته أنفه من أن يبث عواطفه إلى محبوبته.. فاختفى وراء شجرة.. وجعل شابًا وسيمًا أنفه من النوع العاطفى يقف أمام الشجرة فى مواجهة الحبيبة.. هو يقول شعرا ويتكلم من أعماق قلبه، والآخر يحرك شفتيه.. دوبلاج.

والأنف هى صرة الوجه.. وأول شىء تلتقى به فى البنى أدم.. فإذا استرحت لها دخلت على العينين والفم.. وإذا لم تسترح لها ابتعدت فورًا.. ومشكلة الأنف أنها ثابتة جامدة كصخرة لا تتحرك.. أما العينان.. فيمكن أن تتحركا وتنوعا فى التعبير.. والفم.. قد يبتسم أو يعبس.. يمكن تشكيله هو أيضًا. وعليه.. فالأنف قدر لا مفر منه.. وكان أحد أقربائى.. طويل الأنف بصورة عجيبة.. أنا بالنسبة له نبثاية؛ فيبدو أن عائلة المعايطة عندهم چين وراثى لعين فى حجم الأنوف.. وأصر قريبى أن يعمل عملية فى لندن لتصغير أنفه.. وكان قريبى هذا عبارة عن أنف كبيرة فى نهايته وجه.. وعمل العملية.. ولاتزال أنفه التى قطعها هناك فى متحف

الغرائب الچيولوچية، وعاد قريبى . . بأنف صغيرة . . وبدم ثقيل جدا وغلاسة ليس لها نظير؛ فلم أستطع أن أتعامل مع وجهه الجديد . .

والأنف هى مصدر الحياة، فلولا هاتان الفتحتان الصغيرتان ـ عند البعض طبعا ـ لما عاش مخلوق على ظهر الأرض، ولذا تضع بعض الشعوب البدائية فى أنوفها عظمًا صغيرة أو تمائم لتمنع الأرواح الشريرة من الوصول إليها، والأنف هى العضو الوحيد الذى رفض أى تعديلات نسائية عليه . . فالعين تزين بالألوان والمساحيق وكذلك الفم والخدين والشفتين . . وتظل الأنف هكذا منتصبة فى شموخ، رافضة أى قلم روچ أو أى لينر، وفى حياتى رجال ذوو أنوف طويلة، يؤكدون مقولة نابليون . .

أمير سيدهم المنتج المسرحى وشقيق الفنان الكبير چورچ سيدهم . . كان ذا أنف طويلة جدًا، وهو الذى غامر بى فى أول عمل مسرحى لى . . وهو الذى قدمنى للحياة الفنية . . ترى لو كان أمير سيدهم صغير الأنف، كان سيجرؤ على أن يفعلها؟ أشك . . إن الأنف الطويلة علامة على الجرأة والاقتحام، بل إن كليوباترا السابعة ـ الملكة المصرية التى قلبت الدنيا كلها كانت طويلة الأنف، وبأنفها الطويلة هذه جذبت إليها القيصر وأنطونيو من بعده.

قالت زوجتى للطبيب وهو ينظر فى السونار، ويقدم لنا مقاييس المولود القادم . . المهم مناخيره يادكتور ياريت ما يطلعش لباباه . . فنظر الطبيب إلى أنفى، وقال ضاحكًا . . لأ مش للدرجة دى طبعًا

وجاءت ابنتى إلى الدنيا.. مندهشة علطول.. لا يلفت نظرها أى شىء من حولها إلا مناخيرى، تظل تحملق فيها ثم تشدها.. ثم تخبطها ثم تحاول أن تدفسها فى وجهى.. ثم تقترب منها فى شراسة بفمها وتعضها.. وإذا حاولت الدفاع عن نفسى أو الابتعاد عنها.. تبكى.. وتصرخ.. يبدو أنها صارت لعبتها المفضلة، فكيف أحرمها منها.. وها قد أصبحت لأنفى فائدة كبيرة.. وحتى لو لم تتعلق بها ابنتى.. فهذا فى النهاية أنفى وأنا قانع به.. راضى بطوله.. طالما أنه لم يندس فيما لا يعنيه.. مادام أنه لم يحشر نفسه فى خزعبلات.. ولابد أن رئيس التحرير مؤمن بنظرية نابليون فى الاعتماد على ذوى الأنوف الطويلة، وإلا ما كلفنى بكتابة هذا الباب.

**تعليق للكواكب:**

كان حاكم البصرة فى عصر «ابن المقفع» كبير الأنف جدا، وكان «ابن المقفع» إذا دخل على الحاكم يقول له: السلام عليكما.. أى على الحاكم وأنفه الطويلة.. وقد انتهت هذه الفكاهة بمأساة.. إذ إن الحاكم قتل «ابن المقفع» شر قتلة.. فليحذر صديقنا الفنان يوسف معاطى من السخرية بالأنف التالتة مرة أخرى.. فقد يكون فى ذلك شر.. فى «أنف» ما.. غير أنفه الخاص.. وأنف أهله.. الآنفين!

# كان.. فعل ماضى ما تسيبه فى حاله

لاشك فى أن المجتمعات البشرية فى نموها وإدراكها مثل طفل جاء إلى الحياة ليمر بمراحل عديدة، يتطور فيها وتزيد تجاربه.. صحيح أن البنى آدم - فرد - يولد وينمو ويتعلم ويتزوج ويتنيل ويموت.. لكن المجتمع لا يندثر ولا يموت، ولا يتعلم هذا البنى أدم، ولا يصلح من أخطائه.. وكل الشرور الإنسانية منذ بدء الخليقة كما هى.. فالإنسان الذى استطاع أن يطير فى الفضاء، ويكلم الهواء ويخترع الأعاجيب، ويغنى ويرقص ويمثل ويكتب ويبدع لا يزال برضه يقتل ويكذب ويحقد وحالته ما يعلم بيها إلا ربنا.

ولايزال ذلك المخلوق العبيط ينظر بحسرة إلى الماضى ويترحم على أيامه الجميلة.. وينظر بأسى إلى الحاضر الملئ بالمشكلات والقرف.. وينظر بهبل إلى المستقبل فيتخيل بابا نويل آتيًا بكل الحلول الخرافية.. ويظل الإنسان أسيرًا لتلك النظرة الضيقة القاصرة التى تفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل.

وهذا التقسيم الاستعمارى للزمن ما هو إلا تقسيم نابع من عدم

الرضا الدائم فى النفس الإنسانية، فهذا يترحم على أيام زمان.. ويقولك والنعمة الشريفة ياچو.. جات علينا أيام كنا بنعبى الفلوس فى أشولة.. مش عارفين نوديها فين.. وهى الأيام دى ترجع تانى!؟.. وأتساءل فى غيظ، وهل تريد أن تظل طول حياتك تعبى فلوس.. وأخر يقول لى والله ما كان معانا مليم فى جيوبنا، بس كنا مبسوطين.. أهوه.. جات الفلوس والواحد مش مرتاح يا أخى.. هؤلاء هم عبدة الماضى بحلوه ومره.. إنهم يرفضون الواقع بلا سبب بلا تهمة حقيقية.. وأعرف أنماطا أخرى، أستطيع أن أسميهم عبدة المستقبل إنهم دائما فى إنتظار شيء ما.. وغالبًا ما يكون هذا الشيء عبثيًا.. عبيطًا.. ولكنهم يعلقون عليه كل الآمال، واحد يقول لى التصريح بتاع المحل يطلع.. وارتاح أنا بأه.. ويظل هكذا فى انتظار التصريح.. وأخر مستنى عقد عمل، على أساس أن هذا العقد سيحل كل المشكلات التى فى الدنيا، وإذا جاء العقد وسافر وعمل فلوس، ينظر لك بأسى ويقول عملت إيه الفلوس، ما دينى كنت مرتاح زمان، وأنا فى مصر، ملعون أبو الغربة..

وهكذا يظل العشاق المتيمون فى الحياة أسرى للماضى الجميل أو للمستقبل المجهول، ولا أحد يحن على الواقع المسكين بنظرة أو ابتسامة.

فى فيلم يوم سعيد يلتقى عبد الوهاب بمجموعة من الفتيات

العصريات من جيل ١٩٣٩ بنات روشة ودلع.. صحيح شعرهم كان منكوش بطريقة فظيعة؛ حيث لم يكن الكوافير قد عرف بعد.. وصحيح نظراتهم كانت غريبة.. حيث لم تكن البصات الحريمى قد اخترعت بعد.. ومع ذلك فيتهم عبد الوهاب جيله ١٩٣٩ بأنه جيل السرعة.. الذى نسف الحب وقضى عليه.. وأتساءل.. هوه فيه كان حد بيحب قبل سنة ٣٩؟!!..

إنه الرفض الدائم للواقع.. والتحسر الأبدى على الماضى كأنه كان الجنة ونحن لاندرى.. ولذا تنتشر فى الصحف والمجلات كلمة أصبحت أكليشيه.. كلمة الجميل.. فيكتبون زمن الفن الجميل.. والماضى الجميل والأيام الجميلة.. وكأن الجمال انعدم خلاص من الدنيا، أليس عادل إمام جميلا.. ومحمد هنيدى أليس جميلا ويسرا أليست هى الأخرى جميلة.. لا.. ثانية واحدة.. هذا الكلام سابق لأوانه.. سيكتبونه بالتأكيد بعد خمسين عاما.. فلا داعى للعجلة.

قال رمسيس الثانى لزوجته نفرتارى: إيه يانفرتارى ياختى.. فين أيام إخناتون، كانت أيام كلها خير.. الأيام دى خلاص مافيهاش بركة.

صدقونى إنها خدعة كبرى، كل ماضى عشناه، وكل مستقبلها نعيشه ماهو إلا واقع لاندرك قيمته.. يتذكر أبى وهو مسخسخ من الضحك يوم وقع على رأسه من على درابزين السلم، فأخذ السلم

كله كر.. لأن أحدهم وضع له دون أن يدرى مخدرا فى كوب الشاى، ويموت من الضحك، وهو يذكر حينما توقف جسده من التدحرج قبل أخر دور.. فأكمل الدور الباقى بمزاجه.. ونحن أيضًا نضحك معه ونموت من الضحك على ذكريات بابا فى الماضى (الجميل)، ولكن وقتها حينما كان هذا الماضى واقعًا، هل كان جميلاً، لاشك فى أن ضلوعه تكسرت وصرخ من الآلم.. إنه الآن فقط يحكى.. إن الواقع يعيد إخراج الماضى بطريقة جديدة.. ليس فيها شكوى ولا ألم.. إنها مجرد حكاية لذيذة.. ولو دخلت شوكة فى حلقى فى الواقع، للعنت الدنيا بما فيها من فرط الوجع.

يشكو لى صديقى العازب الفوضوى من عزوبيته وضياعه.. ويحلم بالاستقرار.. بفتاة تشاركه الحياة.. ياعينى.. الله.. ياسلاام.. هيه فين بس؟!.. ويلعن لى صديقى المتزوج اليوم، الذى تزوج فيه ويترحم على أيام عزوبيته وانطلاقه.. وقد كان يشاركه الحياة عشرين واحدة ولا واحدة منهن تنكد عليه عيشته.. ياسلاااام هما فين بس؟!.

ويقول لى أحدهم.. هو اللى معملش فلوس أيام السادات ح يعمل فلوس؟! إنسى.. ويرد الآخر.. أيام عبد الناصر هيه الأيام اللى مصر عاشت فيها، فيه الرموز فين أم كلثوم وعبد الحليم.. والثقافة والمسرح.. إنسى.

ويرد الحاج مغاورى.. عبد الناصر إيه، والسادات إيه.. اللى ما عاشّ أيام الملك ماعاشى ياد إنتا وهوه.. الخير كان بالزوفة.. أنتوا شفتوا خير ولا عشتوا أيام.

والنتيجة؟!.. لا أحد فى بلدنا عاش.. كلنا لم نعش.. ومتى نعيش ياناس صدقونى، إنها فرصة.. عش الآن.. اقبلها كما هى، قبل أن تتحول إلى حكايات كاذبة تحكيها للواد ابنك الذى سيرث عبطك، ويحكى لابنه هو الآخر..

يقول لى الناقد المسرحى فى جدية.. أنا زعلان منك.. ده مسرح اللى أنت بتقدمه.. ده هَلْس.. واخرجت له مجلة من الأربعينيات مبهدلين فيها نجيب الريحانى وبديع خيرى ويوسف وهبى وعلى الكسار.. هل يجب أن أموت حتى ترانى؟! هل يجب أن أصبح ماضيا حتى أصبح كاتبا.؟!

# الإنسان أصله قرد والعجلة أصلها حمار

منذ بداية الكون وهناك صراع فكرى مهول بين الإنسان والحيوان.. والإنسان باعتباره يرى نفسه سيد هذه الأرض، والديكتاتور الأعظم، قام بلم كل هذه الحيوانات المذعورة ووضعها فى السجون والمعتقلات، وأطلق عليها حدائق.. وبعد أن سجنها أخذ يدرسها ويتأملها ويفحص فيها، وهو ينظر إليها بحقد دفين، كلما رأى إمكانياتها الفذة الخارقة التى حباها بها الله..

الفهود والنمور تجرى بسرعة مهولة مرعبة والغزالة إكسبريس.. والحصان رهوان ويقول لنفسه.. وأنا؟! هكذا.. عامل زى خيبتها إذا جريت لى شوية.. أشحَّ، ولم ينم الإنسان حتى تفوق على الحيوان فى هذا السباق المحموم واخترع القطار والسيارة والموتوسيكل..

وكلها اختراعات لا تخرج عن كونها محاولات لتقليد الحيوان.. لها جسم وعينان وتمشى على أربع.. حتى إن العجلة كانوا يسمونها قديمًا فى الأرياف.. الحمار الحديد.. ولكن لم يستطع الإنسان أن يتحكم فى حيواناته التى صنعها هذه.. فدخلت القطارات فى بعضها

وتحطمت السيارات على رؤوس من فيها.. ولم نسمع أن أسدين ارتطما ببعضهما فى الغابة.. لأن احدهما كان شارب.. أو مسطول..

ونظر الإنسان إلى السماء فرأى النسور والصقور تحلق بأجنحتها ضد الجاذبية الأرضية التى تشيله وتهبده على الأرض، إذا فقط رجله سابت، وهو يركب لمبة ألاووظ، وأصيب الإنسان بالجنون، فهذه المخلوقات تطير وأنا! وفعلها عباس بن فرناس ركب جناحين وطار.. ووقع على جدور رقبته.. ولم يستسلم البنى آدم، واخترع الطائرة والصاروخ..

نسخة طبق الأصل من هذه الطيور التى عقدته فى عيشته.. ولكن.. ولكن وقع برضو على جدور رقبته بصاروخ نووى على الطريقة الأمريكية، فى سابقة لم تفعلها النسور ولا الجوارح ولا حتى الخفافيش والحدايات.

ونظر إلى البحر وغنى.. شايف البحر شو كبير.. ولكن الحيتان والأسماك الضخمة تسبح بمهارة.. وهو.. الغلبان.. إذا غوط شوية.. يغرق فى شبر ميه.. واخترع السفن والمراكب والغواصات التى تنافس الحيتان والقروش.. ولكنها أيضًا راحت فى الكازوزة على الطريقة الروسية، وحينما أطلق داروين قنبلته فى النشوء والارتقاء.. وأكد أن الإنسان أصله قرد، بدأت كل زوجة تعيد النظر

فى تصرفات زوجها.. وبدأ العلم يتجه نحو دراسة سلوكيات القرد..

ويقال إن عالمًا ومساعده ظلا يغلقان الباب على نفسيهما فى حجرة واحدة، مع أحد القرود لمراقبته فى بعض التجارب، وذات يوم بعد أن خرجا من الباب، قال العالم لمساعده ترى ماذا يفعل القرد حين لا نراقبه.. ونظر من ثقب المفتاح، فوجد عينًا أخرى تطل عليه من الداخل.. كان القرد يراقب سلوكياتهما هو الآخر.

والحقيقة أن هذا العداء الغامض بين الإنسان والحيوان.. عداء قديم.. وكان جدى الأول.. يظل واقفًا خلف شجرة إلى أن يمر حيوان.. ويلسعه جدى بعصاه على رأسه واحدة تجيب أجله.. ويصرخ فرحًا.. وكان الحيوان يندهش لهذا المخلوق العجيب.. فإذا كان الحيوان يعتدى لكى يأكل.. فما باله هذا الإنسان يعتدى ليصرخ فرحًا..

وقف رجل يقول لصديقه.. قررت أنا وزوجتى أن نخرج إلى النزهة فى الغابات، وفى عشر دقائق لبست زوجتى ملابسها وذهبنا إلى الغابة ورأينا أسدًا.. وكان معى عصا.. فهجمت على الأسد وضربته ضربة جعلته يسقط صريعًا.. ولكن.. لماذا تضحك يا صديقى.. ألا تصدق ما أقول.. فقال الصديق.. أبدًا.. أنا فقط لا أصدق أن زوجتك لبست ثيابها فى عشر دقائق!!

# الفيمتو بامية

قالها أحد الفلاسفة الإنجليز «إن العمل الذهنى هو أشق الأعمال على الإنسان، وليس غريبًا أن يكون كذلك، فإن الذهن حديث العهد بالظهور؛ لأننا إذا استضأنا بضوء التطور، لا نستطيع أن نقدر ذهن الإنسان من حيث العمر بأكثر من مليون سنة، فى حين أن بعض أعضائه الأخرى قد ظهرت منذ أكثر من مائتى مليون سنة..

ومع ذلك فالمليون سنة، التى هى عمر عقل الإنسان ضاعت كلها هباء، إذا قورنت بالمائة السنة الأخيرة فقط، التى ركز فيها الإنسان بعض الشىء، وأنا أحمد ربنا وأبوس أيدى وش وضهر أننى كان من حسن حظى أن أتيت إلى هذه الدنيا فى هذه الحقبة، التى هى فخر الإنسان بلاشك.. فكائن ضعيف مثلى لو عاش فى المليون اللى قبل دى بس كان زمانه اتبهدل حيث كان صراع الإنسان مع الطبيعة والحيوانات الخرافية والزلازل والبراكين، صراعًا أنأى بنفسى عن الدخول فيه..

ولاننى أعيش من الكوميديا وهى اللى فاتحة البيت.. اعتقد أننى كنت سأصبح فى حال يرثى لها بين القبيلة، التى لا تفكر إلا فى

الصيد والخناقات وخطف النساء.. ولا أتصور أننى كنت سأصير أكثر من (افيه)، حينما يلقينى أحدهم فى هزاراية ثقيلة أمام ديناصور معدى.. فيخبطنى خبطة برجله ثم يتلقفنى بفمه.. والقبيلة طبعًا واقعة من الضحك على المنظر.. ولا يسعنى وقتها إلا أن أموت راضيًا، ويكفينى أننى أسعدت قبيلة من الأوغاد..

ولأن برجسون يصر ـ ولا أعلم سبب إصراره ـ على أن الإنسان حيوان ضاحك، فليسمح لى أن أضيف إلى مقولته الشهيرة ـ وهو سيسمح طبعًا لأنه مات ـ أن الإنسان حيوان يفكر أولاً.. ثم يضحك.. ولولا هذا التطور الذهنى الإنسانى المعجزة لصار البنى آدم من أثقل الكائنات ظلاً، فهو بالفطرة يفتقد خفة دم النسانيس والقرود.. وحماقة ونزق الحمير.. وهما بالمناسبة أتعس الكوميديانات حظًا.. حيث لا ينوب أى منهما أى نسبة مما يدرانه من إيرادات، يملأ بها جيبه البنى آدم التقيل ده..

وبرغم القفزة الفكرية الإنسانية هذه.. ومحاولة الإنسان أن يضع الكوميديا فى صورة نكته محترمة أو غير محترمة يتداولها الناس كمظهر من مظاهر الحضارة. إلا أنه.. البنى آدم ده.. لا يزال بداخله نزوع نحو النكد والغم الأصيل من أيام المليون سنة إياها.. فهو حيث ينفجر فى الضحك تدمع عيناه.. ويقولك.. بس.. بس كفاية.. حرام.. أرجوك.. قلبى.. مش قادر.. ياساتر.. وكأنك ألقيت بصفيحة ماء مغلى على وشه.. ثم إنه قبل أن يقولَّك

النكتة.. يقول.. سمعت آخر نكتة ولا أفهم لماذا نلصق بالنكتة تعبير «آخر» هذه... حتى التشاؤم فى النكتة ياناس، وكأن القيامة ح تقوم بعدها علطول..

واخترع الإنسان نكتًا تحتاج إلى تفكير يسبقها قائلها غالبا بمقدمة.. أنا ح أقولكم نكتة بس عاوزة دماغ.. اللى يفهمها ح يضحك.. ويقولها.. وننفجر جميعًا فى الضحك طبعًا. وبالتأكيد لم يفهمها أى منا.. ولكن أحيانًا ما يتساءل أحدنا فى براءة.. ما فهمتهاش يعنى إيه.. هنا بأه.. نموت من الضحك على هذا الغبى الذى لم يفهمها، وكل منا يخفى بداخله سره الرهيب.. إنه هو أيضًا حمار، وأنه لم يفهمها.

إن انبهار الإنسان بما حققه فى القرن الماضى.. جعله يرفض تمامًا فكرة أنه مش فاهم، وأطفالنا منهم لله.. نصبوا لنا لجان امتحانات دائمة فى بيوتنا؛ مما قلل قيمتنا أمام أنفسنا بابا.. يعنى إيه الفيمتوثانية؟! هنا اتظاهر بأننى منهمك فى قراءة الجريدة، وأرد باقتضاب اسأل ماما.. وحينما يجرى ليسأل ماما يجدها فى المطبخ مشغولة تمامًا فى الفيمتوبامية، وهكذا ورث أطفالنا وأبناء الأجيال القادمة بلا عناء خلاصة جهدنا الفكرى، وأخذوه على الجاهز.. فكل الأجهزة الإليكترونية فى بيتنا يشغلها أطفال ويصلحها أطفال، ونبوظها نحن الكبار إذا حاولنا مجاراتهم من نفسنا.. ولذا ستنقلب

الآية.. لن يسألنا أطفالنا بعد ذلك، وإنما نحن الذين سنسألهم.. سيدخل الأب على ابنه وهو منهمك أمام الكومبيوتر، يراسل طفلاً يابانيًّا صديقا عبر الإنترنت، ويتباحثان فى مسألة علمية شديدة التعقيد.. يقف الأب أمام ابنه فى خشوع وهيبة.. يستأذن تامر صديقه اليابانى قائلاً.. معلش.. بابا صحى من النوم وفاق لى.. لازم أقعد معاه لحد ما أنيِّمهُ.. عاوز إيه يابابا.. عرفت تفتح فايل فى الكومبيوتر واللا لسه.. انظر إلى الأرض فى خجل.. ولا أرد.. هنا يغضب تامر، ويقف على الكرسى ويقرصنى من أذنى ويقول.. عارف لو طلبت منى أشرح لك حاجة بعد كده ودينى ما حسأل فيك، خليك كده بأه.. كل الأبهات دلوقت ماشاء الله بيعملوا برامج نفسهم، وإنتا قاعد كده مش عاوز تتقدم..

وفجأة أثناء حديثه تتغير الشاشة على الكومبيوتر، وتظهر بنت رائعة الجمال.. وهى تقول بصوت ساحر.. هاى تام.. أنا إليزابيت، هنا ينظر لى الأخ تام نظرة تعنى أن أغلق الباب ورائى.. وطيران على المطبخ حيث أمه هناك تنتظرنى لكى اقمع البامية.

# كيف تتعامل مع السادة الـ..

هناك هالة رهيبة ضخمة هائلة تحيط بهم.. هناك حواجز كثيفة بينك وبينهم.. أسوار وبوابات وحراس وأفكار أيضًا.. إنهم يلمعون دائمًا.. ولكن.. من بعيد.. كجوهرة المهراجا.. تسطع فتخرج منها أشعة ليزرية براقة.. تحمل فى طياتها.. السلطة.. والشهرة والقوة والنفوذ والمال.. وأنت حينما تأتى الفرصة وتكلمهم.. تكلمهم وأنت تمثل الجميع،، واحد طالع فى ندوة.. معجب يقفز ويشير لهم فى سعادة، وأنت هنا لا تمثل نفسك.. فأنت فى هذه الحالة لست أحمد أو عبد الله أو عبد اللطيف... أنت هنا الجمهور، أما هم فكل واحد فيهم يمثل نفسه..

هذه الهالة الأسطورية التى تحيط بهم، تسمح للخيال بأن يطلق لنفسه العنان، فيرسم صورا غريبة وحكايات مثل ألف ليلة وليلة.. وقد تلقى الظروف بواحد منا، ويجد نفسه وجهًا لوجه مع واحد من هؤلاء السادة.. فى صورة سباك يصلح له حنفية.. أو نقاش يدهن له الشقة أو كهربائى.. وتظل هذه اللحظة التاريخية.. هى حكايته المفضلة حينما كان يعمل فى فيللا فلان بيه..

وحتى يجعل حكايته مثيرة.. يضيف إليها كثيرًا من عنده، ولكنه يؤكد دائمًا أنه يمتلك موهبة خاصة، تمكنه من التعامل مع السادة والتفاهم معهم، فهم يتكلمون لغة أخرى، وطالما أن اللحظة التاريخية لم يشهدها أحد.. فلا مانع برضه من «فشرة» بيضاء.. كما قال له الوزير.. حتاخد منى كام فى الشغلانه دى؟! رد هو بغلظة.. حاخد ألفين جنيه يا باشا ويسأله المنصتون باهتمام. وإدالك؟! يرد فى انتصار.. لازم يدينى من غير ما ينطق.. طلع المبلغ.. واداهولى..

ويظل يحكى.. وجد الدولاب ممتلئا حتى آخره برزم الفلوس.. أكوام أكوام.. وإنه ـ طبعًا ـ لفرط أمانته.. لم يمد يده على جنيه.. حتى عاد السيد إلى البيت.. فشخط فيه.. العامل.. هو شخط فى السيد... سايب فلوسك فى الدولاب!! حد يعمل كده!! فيرد السيد بامتنان.. أنا واثق فيك ياسيدى.. ده إنت تزودهم.. هذه حكاية أنا واثق من كذبها.. ليس شكا فى أمانة الأوسطى، ولا شكا فى عقلية السيد، الذى يضع فلوسه فى الدولاب.. وإنما لأننى سمعتها أكثر من خمسين مرة.. ومن خمسين صنايعى مختلفين، ولا يمكن بالطبع أن تحدث كل هذه المرات بالتفاصيل نفسها.. وإنما هى رغبة الصنايعى فى أن يجعل علاقته بالسيد علاقة وثيقة.. ويتكلمان كأنهما أصدقاء..

وأول مرة دخلت فيها أوتيل خمس نجوم.. حدثت مشكلة وشعرت بتوتر من نظافة وأناقة المكان وحينما وجدت الجرسون مرتديا البذلة الأنيقة.. حالقًا ذقنه.. مهذبًا شعره.. وهو يسألنى.. أؤمر يابيه.. أتلخمت.. لأننى يجب أن أتحدث الإنجليزيه أو الفرنسية حتى يكون مناسبًا للموقف.. وقلت الكلمة التى أوصانى بها أصدقاء من مرتادى الأوتيلات.. «فيليه بوافر» كنت أظنه مشروبا أو أى حاجة.. وجدته أكلا.. وأخذت أعد الفلوس التى فى جيبى عدة مرات.. ولكننى كدت أموت من الرعب رغم أن المبلغ كبير.. ومناسب.. ولكن.. كل هذا السجاد والتحف من حولى.. بكام.. تصورت أنه سيحاسبنى عليها.. ماذا لو أتى وقال لى الحساب ميت جنيه. وطبعا لم أذق شيئا من الطبق.. ولكننى دفعت وخلصت وكسرت حاجز الرهبة.. بعد ذلك.. كنت أستطيع بكل جرأة أن أميِّل على المتر فى أفخم أوتيل.. وأقوللو.. شوف لنا قرن فلفل حراق من المطبخ.. بصله خضره.

ولا أروع من تلك الشخصية الفاتنة التى حكاها لنا تشيكوف فى قصة «حلة النقيب» وهى شخصية الترزى «ميركولوف».. الذى كان يأنف أن يفصل للفلاحين، معتمدا على تاريخه فى تفصيل الملابس الفخمة للسادة الكبار.. وميركولوف يعطيك إحساسًا بأنه ترزى معتزل.. يتكلم فقط عن أمجاده.. حينما خيط للكونت «أندريه»

حلة بأشرطة ذهبية، ومن أغلى أنواع الجوخ والصدر كله بالذهب.. إذا أمسكتها بين يديك، وجدت النبض فى عروقك ينفض.. تسيك.. تسيك.. السادة الحقيقيون بتوع زمان.. عندما تخيط لهم إياك أن تزعجهم.. خذ المقاس هكذا بالنظر، وخيط علطول. إما أن تتردد عليهم لعمل بروفات وضبط التفصيل فهذا عبط رسمى.. خذ المقاس وخيط علطول.. اقفز من أعلى البرج؛ شرط أن تدخل بقدميك فى الحذاء مباشرة.

ويظل يتحدث ميركولوف عن السادة العظماء الذين خيط لهم، ويبكى على حظه الذى القى به فى هذه القرية الفقيرة؛ حيث لا نبلاء ولا عظماء ولا سادة، ثم يعود ويقول.. سأموت.. الأفضل أن أموت على أن أفصل معاطف فلاحى..

وفجأة جاءت زوجته وصرخت فيه أيها الأبله أذهب إلى البيت.. ضابط يسأل عنك، فدهش ميركولوف وسألها أى ضابط؟! قالت وما أدرانى يقول إنه جاء ليفصل بدلة.. وانتفض ميركولوف من مكانه.. وترك الجميع، فهو منذ خمسة عشر عاما لم ير وجها من وجوه السادة..

وهناك رأى النقيب يسأله أين كنت تتسكع يا حيوان.. أتستطيع أن تفصل لى بدلة؟ قال الترزى والسعادة تكاد تنفجر من وجهه.. يا صاحب المعالى.. وهل هذا جديد عليا؟ لقد فصلت للبارون فلان

والكولونيل فلان.. آه.. يا امرأة هاتى كرسى لصاحب المعالى.. ونظر له الترزى نظرة خبير، وقال.. يا صاحب المعالى.. أنا أخذت مقاس معاليكم بنظرة واحدة، قال النقيب طيب.. القماش من عندك.. وتكون جاهزة بعد أسبوع. كم تريد؟ ورد الترزى بسرعة، العفو يا صاحب المعالى.. وضحك ضحكة قصيرة سافرة.. أنا أعرف كيف أتعامل مع السادة.. حتى عندما فصلت للقنصل الفرنسى.. فصلنا دون كلام.. إنه لشرف كبير.

ومشى النقيب.. ووقف ميركولوف فى وسط الغرفة، وهو يحدق فى زوجته ببلاهة. وأرغمها أن تبيع البقرة الوحيدة التى يعيشان منها لكى يشترى الجوخ.. وكف الترزى عن الذهاب إلى القهوة التى يجلس فيها الفلاحون.. وبعد أسبوع كانت البدله جاهزة.. وبعد أن كواها ولفها فى قطعة من القماش النظيف.. توجه بها إلى النقيب.. وقال له، البدلة يا صاحب المعالى.. فقال له النقيب.. حطها هنا.. يالله..

وانصرف الترزى.. عائدا لزوجته التى استقبلته تسأله.. كم دفع لك النقيب، فقال لها ساخرًا يالك من حمقاء - إن السادة الحقيقيين لايدفعون فورًا.. اصبرى يا فلاحة.. اصبرى، وظل الترزى يتردد على النقيب.. ولا يحصل على ثمن البدلة.. مرة.. يطرده.. مرة يشخط فيه.. مرة يتظاهر بالانشغال والعصبية..

ويعود ميركولوف بلا أى شيء.. ولكنه كان سعيدًا بحق.. فيكفى أن يسأله أحد المارة رايح فين يا ميركولوف؟! فيرد فى ألاطة.. رايح للنقيب صاحب المعالى عاوزنى.. جاى منين يا عم؟ يقول.. كُنت عند النقيب..

إلى أن أتى يوم كان النقيب فى القرية، وكان ميركولوف وزوجته هناك.. وقالت له الزوجة.. هاهو، اذهب إليه.. واطلب ثمن البدلة حالاً.. وما أن ذهب إليه حتى فاض الكيل بالنقيب، وانهال عليه ضربًا وهو يقول أضجرتنى ياحيوان..

وسقط ميركولوف وتملك الذهول زوجته، ولكن لدهشتها البالغة كان وجه زوجها رغم الدماء والكدمات يتهلل بابتسامة غبطة، بينما اغرورقت عيناه بالدموع، وهو يقول.. هؤلاء هم السادة الحقيقيون.. ناس كلاس.. هذا بالضبط ما فعله معى البارون والكولونيل والقنصل.. يازوجتى إنتى فلاحة. لاتفهمين شيئا.. هؤلاء هم السادة يا عبيطة!! وأنا أعرف جيدًا كيف أتعامل مع السادة.

# تسمح لى أخطب.. ودك

شخص يقف أمام منصة.. وأمامه ميكرفون فى سرادق عظيم.. وجمع غفير من الناس أتوا من كل مكان لكى يسمعوه.. هؤلاء الناس ـ بعكس ما يحدث فى المسرح ـ لا يدفعون ثمن الفرجة.. بل غالبًا هم الذين يقبضون.. رغم أن الرجل فى خطبته الطويلة يمس قضاياهم هم، وتجد الرجل يمتطى الألفاظ والتعبيرات المؤثرة ببراعة.. وصوته يعلو ويهبط فى أماكن بعينها؛ مما يتطلب تصفيق الجمهور أحيانًا.. ويحدث هذا فى الوقت الذى يريده هو، وكأن هناك اتفاقًا ليس معلنًا بينه وبينهم؛ مما جعل النحاس باشا فى خطبه الكثيرة يصرخ فى الناس فجأة.. إيه.. ما بتصقفوش ليه؟ فتلتهب الأكف بالتصفيق الحاد..

ويبدو أن الخطابة كانت ظاهرة اجتماعية ملموسة فى مصر.. حتى أن المدارس كان بها جماعات للخطابة، تعلم التلاميذ كيف يمتلكون ناصية الكلام والتأثير فى الناس.. وكل زعمائنا الكبار.كانوا خطباء على أعلى مستوى.. والخطبة أشبه بمونودراما، يؤديها ممثل واحد، وكان مصطفى كامل حينما يخطب، يضع يدًا على قلبه ويده

الأخرى ممدودة مع جسمه المائل إلى الأمام، وكأنه يلقى بنفسه فى أحضان الجمهور، وكانت خطبة واحدة كفيلة بإشعال الثورة وتحريك الرأى العام..

ولم تكن الخطب مقصورة على الموضوعات الوطنية، بل كانت هناك خطب كثيرة عن السعادة والوفاء وكل الشئون الإنسانية والاجتماعية.. إنها طبيعة أصيلة فى البنى آدم.. حتى عند حلول المصيبة تجد فى طبيعة الإنسان حبا للظهور. والتأثير يجعله يقول.. آه.. انظروا كيف أتألم..

وموسم الخطابة بلا شك هو أيام الانتخابات.. وهنا تتحكم الخطبة فى قرارات الناس بشأن مرشحيهم، وهؤلاء الذين لا يجيدون فن الكلام يصبح موقفهم عسيرًا بحق.. فيرفعون شعار «دعونا نعمل فى صمت»، والصمت هنا ليس إلا قصر ذيل وخط دفاع ضد هؤلاء المكلمنجية الكبار..

ويحكى أن أحدهم كان مرشحًا فى الانتخابات فى الأربعينيات.. ولما لم يكن يستطيع أن يؤثر فى الناس بالكلام.. ابتكر نوعًا جديدًا من الدعاية.. حيث كان بالدائرة سوق للبهائم، يفد إليها الفلاحون من أبناء الدايرة لبيع بهائمهم، وكان صاحب السوق يتقاضى من كل من يدخل ببهيمة قرشًا، ثم يعطيه تصريحًا بالدخول.. فاتفق المرشح مع صاحب السوق أن يدفع هو رسم الدخول لكل داخل، على أن

يوزع على الداخلين تصريحات مجانية كتب فيها «هذه هدية بسيطة من فلان خادمكم ومرشحكم، فأيدوه» وجاء الفلاحون إلى السوق، وفوجئوا بهذه الهدية فأحدثت فى نفوسهم أثرًا حسنًا، وعلم منافس المرشح بما حدث، وكان خطيبًا مفوهًا فأسرع يخطب فى الناس: «يا أيها الناس.. لا تخدعكم هذه الأمور التافهة.. فالمرشح لم يدفع القرش لكم.. وإنما للبهائم كى تدخل السوق مجانًا.. فلتنتخبه البهائم.. أما أنتم فعار عليكم أن تنتخبوه. وخسر المرشح وراحت فلوسه أونطة، أمام الخطبة التى ألقاها المرشح المنافس..

ويظل صراع الانتخابات هو معارك كلامية وخطب رنانة، جعلت أبو بثينة الزجال الشهير يكفر بكل هذه الخطب.. ويقول:

**شهرين وجمعة والعركة دايرة**
**والنــاس جميعـًا بيسمعوهــا**

**نفوســنا حايــرة أحزابــنا ثايــرة**
**وكـــل مـــادا.. بيـوسعـوهــا**

**وكل حزب طاعن فـــى دايـــرة**
**بيقسمـــوهـــا ويـوزعـوهــا**

**ده قسمة عادلة ودى قسمة جايرة**
**ياناس مرارتـى راح تفقعوهــا**

خللوا الحكاية يا خلق سايرة
ظروفنا وحشة يا ناس راعوها
وفى الخناقة مصر اللى حايرة
بيشدوا فيها ح يمزعوها
وإحنا شبعنا م الناس معايرة
ح توقعونا.. وتوقعوها
يعنى أمّا تلقوا مصالحها بايره
تبقوا ساعتها راح تنفعوها؟!



وجاءت تلك الخطبة الزجلية الرائعة لأبى بثينة.. ببساطتها وتخليها عن الكلكعة والجعلصة والألفاظ الرنانة لطمة قاسية على أفواه بياعين الكلام.. والغريب.. أن كلماته هذه لو كتبها امبارح بالليل، لكانت معبرة أصدق تعبير عما يحدث الآن.

ولم تكن الخطابة أختراعًا مصريًا.. فكل زعماء العالم تحصنوا بالكلمة قبل المدفع.. وبالخطبة قبل الصاروخ.. فهذا هتلر وموسولينى وستالين يظهرون فى مونودرامات مهولة، تلهب الجماهير. وحتى روزفلت، على الرغم من أنه أصيب بشلل فى ساقيه وعاهة مستديمة ولكنه قال.. إنهما القلب والرأس اللذان يقودان الرجل إلى النجاح والتأثير.. لا الساقين.. وذات مرة من فرط اندماجه فى الخطبة، نسى أنه مشلول، وكان يعتمد على يديه

فى اتزان جسمه على المنضدة أثناء خطبته.. فسقط على الأرض فقام جمهور بالهتاف له والتصفيق.

أما أكثر الخطباء جاذبية فكان سعد زغلول بلا منازع.. كان له صوت ساحر مميز، وكانت الآلاف تحتشد لسماعه وتطرب له وتتسلطن، وحينما فقد أخاه احتشدت الجماهير، لتَسمع ماذا سيقول الزعيم فى رثاء أخيه العزيز.. وطلع سعد باشا على المنصة والكل فى انتظار ما سيقوله فى لهفة.. وإذا به ينظر للناس نظرة طويلة ثم.. ينخرط فى بكاء طويل، ويترك المنصة دون كلمة واحدة.. وكانت أبلغ خطبة قالها الزعيم.

وفى أعقاب ثورة ١٩ عهد سعد زغلول على نفسه ألا يدخل مسرحًا، أو أى دار لهو؛ حتى تنال مصر استقلالها، وظل وفيًا على عهده حتى سنة ٢٧.

وكانت فرقة منيرة المهدية تقدم رواية أنطونيو وكليوباترا بنجاح عظيم، وتكاثر عليه أصدقاؤه واصطحبوه ذات ليلة إلى المسرح، وتقدمت منيرة المهدية إلى مقصورة الزعيم تشكره على تشريفه مسرحها، وتقدم له شابا صغيرًا واعدا اسمه محمد عبد الوهاب، وانتهز تلك الفرصة الأستاذ منصور عوض مدير شركة الجرامفون الفنية، التى كانت تسجل اسطوانات منيرة المهدية، واستأذن الزعيم أن يسجل بصوته خطبة صغيرة على أسطوانة، وعارض الزعيم فى

البداية، ولكنهم ألحوا عليه إلى أن استطاع بالفعل أن يسجل خطبة قصيرة يستغرق سماعها خمس دقائق، وأرسلت الأسطوانة إلى ألمانيا لطبع نسخ منها..

إلا أن الشركة تلقت بعد أيام رسالة من ألمانيا، تطلب فيها من المعامل إعادة تسجيل الأسطوانة لأن الصوت به بعض الخشخشة.. وجرى منصور عوض إلي بيت الأمة.. ولكنه فوجىء بتغيب سعد باشا.. الذى مرض بعدها وفارق الحياة.. واحتفظت ألمانيا بالأسطوانة وحرمت منها مصر نهائيا، وما أحوجنا إليها فى هذه الأيام بالذات.. ومن يعلم.. ألا يمكن أن يحرك صوته ـ برغم الخشخشة ـ عقولنا وأفئدتنا ويعيد إلينا الروح ويبث فينا الأمل.. بدلاً من الأصوات الرديئة التى أفسدت أذاننا والتى ما أشبهها بالخاطبة.. التى تلقى عليك خطبة عصماء فى جمال العروسة ورقتها.. وهدوئها.. إلى أن تتزوجها وتتدبس؛ لتكتشف أن ذلك كله كان مجرد دعاية انتخابية كاذبة.

# شـــارون .. وآخـــرون

فى الأفلام القديمة تتجاوز الزوجة القوية المفترية كل الحدود وتتطاول على زوجها المستسلم فى ضعف ومهانة.. إلى أن.. (ولابد أن يحدث هذا قبل نهاية الفيلم) إلى أن يلسعها قلم على وجهها.. وهو يزأر كالأسد.. فتصفق السينما كلها.. أيوه كده ياراجل.. تسلم إيدك..

وهذا التطاول والتمادى فى الفساد من الزوجة، سببه الرئيسى هو التنازلات التى ظل الزوج يقدمها إلى أن فاض به الكيل فى النهاية وعليه.. فالفساد مثل الإدمان.. كلما أوغلت فى تعاطيه، صار الإقلاع عنه غاية فى الصعوبة، بل وتصبح مهمة الزوج الأخيرة فى رزع القلم وإعادة الأمور إلى نصابها شبه مستحيلة.

وبنظرة سريعة غير متأنية لما يجرى حولنا سنجد أن مسلسل تطاول الزوجة وتبجحها وقلة أدبها.. قد طال جدًا.. وصار مسلسلاً من عشرات الأجزاء، وسنظل نتفرج ولا أمل فى هذا القلم الأخير على وشها.. الذى يشفى الغليل ويعدل المايل.

فهذا شارون يخرق كل العهود والمواثيق.. بكل جرأة.. بكل

بجاحة.. كعاهرة قالعه مَلْط، وواقفة فى وسط الشارع تشتم الرايح والجاى بأقذع الألفاظ وأدنئها، والعرض مستمر.. والفيلم لا يريد أن ينتهى.. أين قلم يوسف وهبى وعبد الوارث عسر أو حتى عبد الفتاح القصرى.. إنما.. خلاص.. ح تنزل المرة دى لكن المرة الجاية لا يمكن تنزل أبدًا..

وفى الوقت نفسه وبتزامن غريب، تتداعى كل القيم وتسقط كل الرموز.. فالصحافة التى هى قلعة الشرف ومنبر الكلمة الحرة.. أصابها الأستاذ فهمى هويدى فى حملته المذهلة فى مقتل، ورزعها قلم حامى له دوى كبير، وروعة ما كتب تكمن فى أنه حول الهمس إلى صوت عال له دوى.. ولا أعلم لماذا شعرت وأنا أقرأ له.. أنه شاعر.. فأنا أحب وأنت تحب، ولكننا حينما نحاول أن نعبر عن هذا الحب.. نضرب لخمة.. ونرتبك.. ولكنه فعلها بكل جرأة.. بكل شاعرية فك الشفرة التى نتهامس بها..

وهل من فساد أكبر من صحافة مرتشية مدفوعة الثمن؟! واسم أخر للرشوة أسمعه هذه الأيام الزيس.. ولكن هذا خاص بضيوف بعض البرامج فى التليفزيون.. فالأصل أن يدفعوا لك كى تتكلم.. أما أن تدفع أنت من أجل أن تتكلم، فهذه أعجوبة جديدة من أعاجيب الفساد.. محطات جديدة فضائية منافسة تعرض عليك أن تتكلم وهؤلاء سيدفعون.. لن يقبلوا على أنفسهم مليمًا واحدًا

منك.. ولكنهم سيدفعون لك كى تقول الكلام الذى يريدونه.. زيس من نوع آخر..

وكل شىء الآن للبيع.. المقال.. العمود.. الصفحة.. الرأى.. البرنامج.. الموقف.. الفيلم والمسرحية والمسلسل.. المهم جاب كام،، المهم يعمل مصلحة ؟! وستطلع تعبيرات مبتكرة مثل.. ده مرزق، يمسك التراب يبأه دهب.. وليس مهمًا على الإطلاق.. أن تكون الأغنية هابطة بالذوق العام.. أو أن يكون الفيلم مسفًا.. وستجرى الدنيا كلها وراء هذا «المرزق» بمنطق جاور السعيد تسعد..

وأدهشنى ذات يوم أن زارنى ببيتى صحفى شاب.. وتعجب من تواضع وبساطة منزلى الصغير، وسألنى متعجبًا.. كل هذه الأعمال الفنية التى كتبتها والمقالات والكتب.. وهذا هو بيتك؟!!.. قلت له ببساطة.. لأن هذه الأعمال التى ذكرتها هى التى عملتها فعلاً.. فهذا الأنتريه اشتريته من أول مسرحية.. والنجف.. من فيلم كذا.. والمطبخ ده من نسبتى فى سبع كتب ألفتها.. الكتابة ياصديقى.. هذا هو أقصى ما تحققه.. أما الفيللات والبيسينات.. والقصور الضخمة فلا يمكن أن تأتى من الكتابة.. وأنا لا أخجل من بساطة بيتى وأثاثه المتواضع، وأنا أجلس بين أعمالى، ومن أعمالكم سلط عليكم.. أقعد أستريح.. على مهلك.. فهذا الكرسى القديم من سهرة ألفتها فى بداياتى.. ما تريحش عليه قوى.

نعم.. أتفق معك.. لقد كتبت كثيرًا.. ولكن الكاتب الذى يصدق ما يكتبه ويؤمن به لا يستطيع أن يكون شاطرًا فى البيع أيضًا هل تعلم أن زعيمًا وطنيا كبيرًا كأحمد عرابى، حينما صودرت أملاكه وأصبح ع الحديدة. بعد نفيه إلى جزيرة سيلان، أستضافه اللورد ليبتون صاحب الشاى المعروف باسمه فى مزارع الشاى، التى يمتلكها فى الهند.. وظل عرابى فى ضيافته أكثر من أربعة شهور..

وأعجب اللورد بالباشا إعجابًا كبيرًا.. وصارت بينهما صداقة وشاى رايح وشاى جاى.. وذات يوم عرض اللورد ليبتون على عرابى باشا أن يضع اسمه على الشاى الذى تخرجه مزارعه.. ويصبح اسمه شاى عرابى باشا.. مقابل خمسين ألف جنيه..

وكان اللورد رجل أعمال ذكيا جدًا.. فإذا كانت الثورة العرابية قد فشلت.. فشاى عرابى سينجح نجاحًا ساحقًا بالتأكيد.. وكان عرضه على الباشا فى توقيت عبقرى.. الراجل منفى.. وواقع.. وظروفه ضاربة.. ولكن وياللعجب.. رفض عرابى باشا العرض بعنف.. ورزعه القلم الشهير حينما قال له.. يا أخ ليبتون.. نحن مسلمون.. ومن باع اسمه.. فقد باع دينه.

**(تعقيب: فى هذا المقال البديع للزميل يوسف معاطى لعبة لفظية ذكية فكلمة «شارون» «هى من الشراء؛ ومعناها «مشترون».. أما من يريد أن يفهم من كلمة «شارون» غير ذلك.. فهو حر»!)**

# تحرير أمريكا

لست خبيرًا بحياة السجون لأننى لم اسجن بعد، ولابحياة القبور لأننى لم أمت بعد، ولست خبيرًا بالألم لأن نوعية ألامى من تلك النوعية التى يمكن أن يطلق عليها «ألام طبيعية».. مرض.. فراق الأحباب.. إحساس بعدم التقدير.. صباعى مدوحس، جالى تسمم. شوية برد... أشياء من هذا القبيل..

ولكن الألم الذى أقصده هو ذلك الألم الخرافى المهول الذى لم يصفه أحد بعد.. تخيل أن تقع فوق رأسك طوبه فى حجم العمارة.. طاخ.. هل ستكون هناك فرصة للشعور بالآلم.. وهل هذا الألم يمكن التعبير عنه..

قلت لنفسى ما هى التركيبة النفسية لذلك الطفل، الذى يقذف بحجر مواجهًا الدبابات والصواريخ بصدره الذى يشبه صدر دجاجة صغيرة.. وكيف يتحمل ـ وأنا رأيت ذلك ـ رصاصة تخترق كتفه الهزيل؟! ثم يجرى فى شجاعة، وهو يقول ببساطة فيه رصاصة فى كتفى.. وكأنه لاعب ناشئ أحرز هدفًا ويجرى سعيدًا، وهو يقول..

جوون، قالوا لى إن ذلك الطفل تدرب جيدًا. . فهو يدخل القبر وهو لم يبلغ العاشرة بعد ويغلقون عليه القبر لمدة ٢٤ ساعة ثم بعد ذلك يخرجونه ويسألونه. . ماذا رأيت؟!

وهكذا يصبح القبر الذى دخله بإرادته وهو حى مسألة هينة جدًا، إذا دخله ميتًا، وصارت السجون الصهيونية نزهة جميلة. . ولذا حينما يكون للألم هدف أسمى، يتحول إلى مزية كبرى تقترب من المتعة. . كمتعة أم تتعذب وهى تلد. . لذلك لا ينبغى أن ننظر إلى الألم، كما هو مجرد من الدوافع التى تؤدى إليه، والتي تجعله فنًا من أرقى الفنون وأرفعها، وأنا فى الحقيقة لست متعاطفًا مع الشعب الفلسطينى بقدر ما أنا مبهور بهم، بقدر ما أنا مندهش، بقدر ما أنا خجلان لأننى اتفرج وأصفق فقط.

وصديقى يصر ويقول لى أكتب. . قول. . عبر عما بداخلك. .

ماذا اكتب يا أخى؟! إن الكتابة عنهم تصبح عارًا، فالسيف الذى هو أصدق أنباء من الكتب، ليس فى يدى ولا أستطيع أن أحمله. . الدنيا فى حال كريهة، كريهة الباطن وكريهة الظاهر. . فالمشكلة ليست احتلال إسرائيل لفلسطين. . المشكلة احتلالها لأمريكا. .

إنها الذبابة التى دخلت أذن الفيل، فأصابته بالجنون، وجعلته خاتمًا فى أصبعها. . لاشك أن مونيكا لا تزال هى بطلة الفيلم. . فالعاهرة التى أذاقته الأمرين، ودوخته السبع دوخات جعلته يؤمن بأن

الـ.... ترمى بلاها عليك، وتجيب اللى فيها فيك.. وعلمته أن يحترس ويفكر ألف مرة قبل أن يقول الحق.. والصهيونية ما هى إلا مونيكا جديدة.. ولا تسألنى بأه أين الضمير الإنسانى.. فالضمير وهم، هو صوت يحذرك من فعل الشىء بعد أن تفعله طبعًا، ولكن الضمير الأمريكى لا يتحرك لا قبل ولا بعد..

أما هذه البدل والكرافتات النبيتى التى تجلس وتتحاور وتتكلم باسم الدبلوماسية، فهم جميعًا يعلمون جيدًا أن الدبلوماسية وسيلة للتعبير عن أخبث النوايا بأدق العبارات، والقيام بأدنى الأعمال، تحت قناع الشرف والنزاهة..

القلم نفسه الذى وقع اتفاقية بوقف العنف، كان يوقع أسفلها ورقة جديدة بقصف رفح، وإسالة المزيد من الدماء.. قالها ترومان الرئيس الديمقراطى سنة ٤٦ أدخلوا إلى فلسطين مائة ألف يهودى.. هنا هب منافسه الجمهورى (ديوى) معارضًا، وقال: ماهذا الظلم.. ماهذا التقييد.. أدخلوهم بالملايين.

وتاريخ الاحتلال الإسرائيلى للولايات المتحدة الأمريكية ليس ببعيد، فهم كانوا فى البداية يعاملون أسوأ معاملة، وكانت هناك محلات كثيرة مكتوب عليها لافتة «ممنوع الدخول لليهود ولاللزنوج»، فإذا كان الزنجى سيعرف بلونه.. كيف سيعرف اليهودى؟! بعضهم كان يعتمد على حاسة الشم.. وقال أن مجموعة من اليهود فى بداية

الأربعينيات دخلوا أحد المطاعم الأمريكية لتناول الغداء، وجاء المتردوتيل، وتقدم من أكبرهم وأشار إلى اللافتة.. ولكنهم ثاروا فى وجهه، وقال أحدهم: أين حقوق الإنسان؟ أين الدستور الأمريكى؟ أين الديمقراطية، فما كان من الجرسون إلا أن خرج إلى الحديقة، وعاد ومعه ثلاثة زنوج كانوا يعملون فى الحديقة، وأجلسهم بجوار اليهود على المائدة.. وسرعان ما احتجوا وثاروا وطالبوا بإخراج الزنوج.. فرد عليهم الجرسون قائلاً.. وأين حقوق الإنسان.. وأين الدستور الأمريكى فخرجوا ساخطين لاعنين.

وبدأت من هنا فكرة الاحتلال الإسرائيلى للمجتمع الأمريكى، ماذا يريد شخص ليس لديه تاريخ ولا حضارة ولا جذور؟ شيئان لا ثالث لهما: الفلوس والجنس، وهكذا صار القواد لعبة فى يد العاهرة.. صار يخشاها ويدافع عنها، ويقف تحت الشقة التى تمارس فيها الرذيلة، ممسكًا لها بالبالطو أحسن تأخذ برد ولا حاجة..

ولكن لماذا يقبل الشباب الأمريكى هذا الوضع المهين لبلاد تتغنى بالحرية وبحقوق الإنسان.. أليس عندهم هناك فى نيويورك أو لوس أنجلوس حجارة.. طوب.. زلط.. أستطيع أن أكون وسيطًا فى صفقة لتصدير الحجارة من فلسطين إلى هناك.. ولكن من يلقى بالحجارة؟!

# توكلت على اللـه

ترى هل انتحر قائد الطائرة الخليجية فى البحرين هو الآخر؟.

ترى هل قالها وسجلها الصندوق الأسود «توكلت على الله».

فالخبراء الأمريكان الذين ينتدبون لتفسير نكبات الطائرات والغواصات، يؤكدون أن الطائرات لا تسقط ولا تنتحر، بينما الطيار هو الذى يسقط وهو الذى ينتحر..

ومن الأسباب العلمية التى تؤدى إلى سقوط طائرة أن يحدث شلل مفاجئ فى المحركات، أو فى الروافع الخلفية التى ترتبط بذيل الطائرة، أو أن يكون الطيار مصريا!!! وقد أفلتت الكونكورد اللعينة التى سقطت أخيرًا من الاحتمال الأخير، وإن كان بعضهم يؤكد أن مصريا (برضه) قال «توكلت على الله».. وضربها بنبلة.

عزيزى القارئ.. اعذرنى فكم المرارة التى أشعر بها فى حلقى كبير.. آه.. يبدو أنها اتفقعت ياعزيزى.. أعنى المرارة طبعًا..

والحمد لله أننا طلعنا براءة من غرق الغواصة الروسية بمن فيها،

فنحن تخصص طائرات، مالناش فى الغواصات النووية ولا غير النووية..

وحينما هبطت طائرة لوس انجلوس الذاهبة إلى لندن هبوطا اضطراريا فى شيكاغو، علمت أن السبب هو مشاجرة بين زوج وزوجته، كانا مسافرين على الطائرة.. ولا يعلم أحد سبب الخناقة.. قيل إنهم سمعوا صوت قفا يطرقع، والزوج يصرخ فى زوجته.. يو هيت مى!! طيب خدى وراح مناولها بوكس فى عينها..

وحاول المضيفون والمضيفات تهدئتهما بلا جدوى.. وسجل الصندوق الأسود أطول فاصل من الردح بين زوج وزوجته، وخرج الطيار من الكابينة.. وشخط فيهما كأى سواق ميكروباص.. ولكن أبدًا.. شلاليت وبونيات، ولم تربط الزوجة الحزام، وإنما خلعته وانهالت به على زوجها.. مما جعل الطيار يهبط فى شيكاغو.. وفتح الطيارة وقال لهم إنتوا وش طيارات.. وكان البوكس فى انتظارهما طبعًا.. ويؤكد الخبراء أن الزوجين كانا فى حالة ود وألفة، إلى أن ضرب الإسفين بينهما واحد مصرى برضه.

نهايته.. كنت أجلس أمام التليفزيون فى أيدى مانجاية، شغال فيها وأمارس هوايتى فى تقليب المحطات، ولا أستقر كالعادة عند محطة معينة وكأنى بأشقر عليهم، فهذه غنوة حفظتها صَمْ بالفيديو كليب

بتاعها.. وهذا فيلم أقسم أننى أستطيع أن أقولَّك حواره بالكامل، ولا أنسى كلمة، وهذا برنامج حوارى يدعى أنه يناقش قضية ولكن المحظورات كثيرة، لا يجرؤ على أن يقترب منها، والقضية ماهى إلا المحظورات لا أكثر ولا أقل.. إلى أن.. أن أن.... شاهدت وسمعت الفاجعة فتسمرت أمام الشاشة..

ماهذا الذى أمامى؟!.. إنه الموت.. الموت الرهيب الذى لا يليه أى شىء.. عزاء ولا منطق ولا أى شىء مجد.. سوى ذلك السؤال العابر، الذى يقشعر له البدن.. ماذا لو كنا نحن على الطائرة.. أنا أو أنت.. ياساتر يارب.. إذًا هى هكذا تأتى فجأة بلا مقدمات.. وتنتاب البنى أدم مننا حالة صوفية من التسليم إلى إرادة الله.. لأ الواحد بأه يرجع ينتظم فى الصلاة.. ويبطل الحركات النص كم اللى بيعملها لايكذب ولا ينافق ولا يصارع على منصب... على إيه.. كله فانى.. محدش بياخد حاجة معاه..

وتستمر هذه الحالة الصوفية النورانية الرائعة.. يومين.. تلاتة.. أسبوع على الأكثر.. ثم تعود الحياة بكل قوتها الغاشمة، وتتحرك التروس فى هذه الآلة الكبرى.. وننسى، ويعود الكذاب إلى كذبه، والانتهازى إلى انتهازيته، والمنافق يزداد تألقا..

حكايات كثيرة كانت على الطائرة المنكوبة، كلها تحمل عنوان سخرية القدر..

هذا الذى كان مسافرًا فى الطائرة التى تسبقها، وتشاجر مع أحد الواقفين فى الطابور، ولم يستطع أن يلحق بالطائرة، فعمل البدع ووسايط حتى يلحق بالطائرة التى تليها.. حتى يلحق بقدره.

وآخر ذهب لكى يسافر فى الطائرة نفسها وتعطلت إجراءات سفره.. وخرج من المطار مكتئبًا يلعن حظه.. وقال فى زهق.. يارب خدنى.. ولم يستجب له الله.. فسقطت الطائرة.. ونجا هو..

وبنت جميلة كانت تحلم أن ترتدى اليونيفورم، وتصبح مضيفة وتحقق حلمها وضاع الحلم بعد أشهر قليلة..

اللهم لا اعتراض على مشيئتك.. كان جالسًا فى الترابيزة التى بجوارى، وهو يشرب الشيشة، وفجأة.. سكت.. تصورت فى البداية أن الحجر خِلِص.. ولكنهم قالوا إنه عمره.. هكذا بلا طائرات ولا غواصات..

ولكن... كم مصريا كان على متن الطائرة المنكوبة؟! ٦٣ مصريا حوالى نصف الطائرة مصريون؟! حتى فى الموت نحن أغلبية، ولماذا سافر هؤلاء ولماذا يسافر غيرهم ويتغربون.. ولماذا كلما سافرت إلى بلد عربى أو أوروبى، أراهم هناك فى حالة اللهاث خلف لقمة العيش، يتحملون النازية الجديدة فى ألمانيا.. ويتحملون الاضطهاد فى كل بلد.. من أجل ماذا؟!

لماذا يقف شبابنا بالطوابير أمام السفارات يعاملون أسوأ معاملة.. لمجرد أن يتسلم الواحد منهم «أبليكيشن» ربما.. يعطونه المنحة الإلهية.. الفيزا لأوروبا.. التى تشحذ، والغارقة فى الجنس والدعارة والحقارة..

ولماذا يضيع شبابنا زهرة أعمارهم في الخليج، ويعودون بعد معاناة السنين بمروحة وخلاط وذكريات أليمة.. كل هذا حتى تمتلئ أسطح بيوتنا الريفية بأطباق الدش؟..

إن البنى أدم المصرى هو أغلى حاجة عندنا، فلماذا يرخص هكذا ويتشحطط هكذا، بينما تفتح بلدنا الطيبة ذراعيها لكل ضيف وبالأحضان..

هؤلاء الذين سقطوا مع الطائرة المنكوبة مهندسون ومدرسون شباب فى غاية الروعة.. ومع ذلك لم تسقط طائرات هؤلاء الذين نهبوا فلوس البلد وهربوا.. له فى ذلك حكم.. أعزائى.. اخترت «توكلت على الله» عنوانا لمقالى هذا فإذا حدث ولم أكتب الأسبوع القادم.. أظن إنتو ح تفهموا اللى حصل لى.

# ماتحسبهاش بالمصرى

حينما أسافر إلى الخارج.. أعود نفسى بمجرد ما أن أضع قدمى على أرض البلد الغريب أن اتبع المثل الذى يقول.. فى روما أفعل كما يفعل الرومان.. وفى إنجلترا مشيها إنجليزى.. وفى فرنسا.. أعمل فرنساوى.. ولا تحسبها بالمصرى أبدًا فالجنيه الإنجليزى رغم أنه يلسع له ستة وشوية مصرى إذا خرج من جيبك، لكننى انظر له فى لندن على أنه جنيه.. مجرد جنيه ولو نطق قدامى.. راح ولا جه هوه جنيه.

وقد حدث أننى شربت حجر شيشة فى إحدى المقاهى بلندن.

وعلمت أن الحجر هناك بسبعة جنيهات إذا ضربنا فى ستة.. يعنى ٤٢ جنيهًا مصريًا.. وهمس لى صديقى الجالس بجوارى مندهشًا حجر باتنين واربعين جنيه، قلت له: وبعدين قلنا ايه.. ماتحسبهاش بالمصرى طول ما إحنا فى لندن وأول ما تغير فى المطار، ده إذا عرفت تغير - سبيك لندن علطول.. وهذا ما فعلته.

غيرت فلوس إنجليزى وارتديت بالطو إنجليزى، وتسلحت بالبرود

الإنجليزى وجلست فى بيتى الإنجليزى الأنيق مرتديًا الروب دى شامبر، وأنا أشرب شاى الساعة الخامسة «فايف أوكلوك تى» فإذا شاهدتنى بهذه الحالة لن تصدق أننى يوسف معاطى، وإنما جوزيف ماجور، وجلست أتابع النيوز.. أعنى النشرة فى البى بى سى «BBC»، ويالهول ما رأيت هذا بيتر ماندلسون، وهو لمن لا يعلم وزير إنجليزى مهم جدًا وشاطر جدًا، وعلاوة على ذلك فهو الصديق الأنتيم «الحميم» لتونى بلير رئيس الوزراء، كما أنه كان السبب الرئيسى فى نجاح بلير فى الانتخابات كل ده جميل.. بيوتيفول.. إيه حكاية بيتر ماندلسون بأه، لقد أجبروه على أن يقدم استقالته طبعًا انت تتساءل مين اللى اجبروه؟

راجل واصل زى ده حد يقدر يهوب ناحيته؟ آه ـ حنرجع تانى نتكلم مصرى؟

أرجوك يا أخى باك تو لندن... البرلمان هناك اكتشف أن الأخ الوزير ماندلسون، كان له واحد صاحبه بيجرى على باسبور وصاحبنا معالى الوزير قال إيه.. بيوصى عليه فى إدارة الجوازات إن الإجراءات تمشى بسرعة، فاكراها عزبة أبوه.. عنها وراحو مولعين الدنيا، وأجبروه إن هو اللى يمشى بسرعة مش الإجراءات، ووقف الراجل واعترف أنه فعلا اتوسط لفلان إن باسبوره يمشى، وعلى فكرة فلان ده مش ضارب بطاقة ولا هربان من حكم.. ده باسبوره ماشى واتعمل كمان، أمال إيه القصة؟

القصة إن إزاى وزير يتوسط لحد ويميزه عن بقية الشعب.. ما يقف فى الطابور زى خلق الله، ووقف رئيس الوزراء تونى بلير والدمعة ح تفر من عينه، وقال ده أحسن وزير عندى ياجماعة، أفرط فيه بالساهل كده، وهاج البرلمان واستسلم بلير، وقال القانون قانون، ولو بلير زود فى الكلام كانوا طيروه هوه كمان، وعلى الرغم من أن «ماندلسون» يعنى وزير نابغة ومشهود له بذلك من الأعداء قبل الأصدقاء، لبسوه الجلابيه فى ثانية، وعينوا مكانه وزير جديد اسمه جون ريد، زمانه بينفخ فى الزبادى طبعًا، ومفيش حد هوب ناحيته فى أى مصلحة، ولو هوه نفسه حب يعمل باسبور ح يدوخ السبع دوخات، زيه زى أى كناس فى شارع أوكسفورد..

وسألت نفسى - هل تفرط إنجلترا فى رجل سياسى داهية وناجح كل هذا النجاح، لمجرد إنه يعنى اتوسط واسطة صغيرة لحد. قال لى راجل إنجليزى مهم جدا شغال قهوجى فى القهوة، إللى الحجر فيها بسبعة جنيه، ياسيدى إنجلترا بها وزراء أكفاء كثيرون، ولكن قليلين هم الذين يتسمون بطهارة اليد وصحوة الضمير، واللى يقع فى الصغيرة - يقع فى الكبيرة، بل إن هناك قانونًا فى إنجلترا يفرض على أى مسئول يتقاضى هدية أو أى واجب أو بوسة من أى حد أن يسجلها فى البرلمان ويثبتها، حتى إذا حاول أحدهم أن يلوث سمعة المسئول، نعلم أنه أثبت كل شىء فى البرلمان، ومع ذلك استطاع

الفايد المليونير المصرى بهداياه أن يرفد اثنين من الوزراء الإنجليز، ويشرد واحد، حينما أثبت لهم أن الوزير اتعشى سمك وجمبرى، وبات ليله بلُّلوشى فى فندق الفايد. ولا يستبعد أن يذهب وزير إنجليزى إلى البرلمان ليثبت فى المضبطة أن أحد رجال الأعمال عزم عليه بسيجارة فرط إمبارح الساعة ستة وربع.

أعزائى.. إذا كنت قد قررت من البداية ألا أحسبها بالمصرى، حتى لا أتعقد وأنا أرى الجنيه بتاعى يتحول إلى بريزة ورق على إيد الجنيه الإنجليزى، ففيما يختص بالمواقف وحكاية ماندلسون أفضل ألا أحسبها بالمصرى وأيضًا للسبب نفسه، وعمومًا لا يجب أن نخجل من الجنيه المصرى، فهو يعمل له بتاع ميه سودانى برضه.

# سيئاتى .. ساستى

انتخابات.. انتخابات.. تحيط بنا من كل جانب.. تحاصرنا كل المحطات ووكالات الأنباء.. أمريكا ـ راعية السلام ـ وإسرائيل ـ المسالمة كل منهما تغير جلدها وتعيد توزيع الأدوار، فتسلط الضوء على أشخاص بعينهم.. وتسحبه من أخرين، ونحن نتابع.. ونرصد ونحلل..

ننظر إلى جورج بوش الابن، وهو يحيى الجماهير فى التليفزيون، فيعلو صوت حوارنا الداخلى.. ده حتة من أبوه.. شكله بالضبط.. ويعلق أحدنا قائلا.. على فكرة شكله مش ميال لإسرائيل قوى.. ويتساءل آخر.. هل سيكمل الابن مشروعات بابا فى العراق؛ حتى ينطبق المثل من شابه أباه فما ظلم، ويقدم بوش نفسه كرجل متدين.. يذهب إلى الكنيسة ويشكر ربنا.. لازم طبعًا.. اللى اتلسع من مونيكا ينفخ فى الزبادى، والأمريكان يصدقون.. ويصفقون.. ويختفلون..

وسيودعون كلينتون وداعا حارًا كبطل شعبى لفيلم مثير، حقق أعلى الإيرادات رغم أنه فنيًا كان دون المستوى.. وسيسمحون له أن

يعقد قران ابنته على خطيبها فى البيت الأبيض قبل مغادرته، وسيكون المشهد النهائى فى فيلم كلينتون.. زواج الأبنة فى فرح أسطورى وأبوها وأمها واقفين بيصقفوا لمحمد فؤاد وهو بيغنى.. وبس.. أقفل على كده.. كده أحلى فَينال.. وسيقف فى الفرح بين المعازيم آل جور بيبتسم فى مرارة، فقد خرج من البيت الأبيض بلا حمص، وسيربت كلينتون على كتفه ويقول.. فكها يا آل جور ياخويا إحنا عاوزين إيه من الدنيا، غير إن العيال تفرح وتنبسط.. وسيدخل الفرح عمو باراك، وياخد كلينتون بالأحضان ويقول له باسما شوف، على الرغم من اللى انا فيه مقدرتش ماجيش الفرح.. فين بنتنا الأمورة لما أبوسها.. ويسأل كلينتون. شارون فين ونتنياهو؟!

أوعى تقول ماجوش معاك؟!

يرد باراك.. ورايا.. جايين ورايا، ثم يهمس له فى أذنه قتلنا منهم ستة إمبارح ماحبيناش نيجى الفرح بأيدينا فاضية. ويدخل نتنياهو وهو يرقص على أنغام محمد فؤاد كداب مغرور قال إيه بيحبنا، ويهمس باراك لكلينتون.. فاكر نفسه ح يكسب الانتخابات.. عبيط.. وآدى شارون التانى أهوه.. عشان ما دخل المسجد بالعساكر، وعمل شبورة، فاكر نفسه ح يشقطها منى.. شوف يا بيل يا خويا.. أنا أكثر واحد من اللى حكموا إسرائيل سعى للسلام، وأكتر واحد فيهم عمل مذابح وخلا الدم للركب.. يعنى مراضى الكل..

وتبدأ دينا الراقصة فقرتها الاستعراضية البديعة.. هنا تنظر هيلارى لكلينتون نظرة ذات مغزى، فيترك القاعة فورًا.. ويخرج إلى الحديقة.. فيجد الرئيس جورج بوش الابن، وقد أتى ليعمل الواجب.. فيعانقه كلينتون بحب.. وهو يقول ثانك يو مستر برزدنت.. ثانك يو.. فى مشهد مطابق تمامًا لما حدث لخديو اسماعيل، حينما تسلم قرار خلعه من الخديوية.. ونادى على ابنه توفيق وقال له.. مبروك يا افندينا..

ويخرج الثلاثة شارون وباراك ونتنياهو جريا إلى الحديقة حينما علموا بمقدم الرئيس الجديد.. وهات يا سلامات.. ويقول له باراك.. خللى بالك يا ريس إحنا لينا نظام خاص هنا فى البيت الأبيض.. ما بنحاسبش ولا بندفعش.. إحنا من البيت، مش غُرب..

وتبدأ فرقعة زجاجات الشمبانيا الفاخرة.. ولعبة إلقاء التورتات الشهيرة ويستمر الحفل حتى الساعات الأولى من الفجر..

وينظر جورج بوش الابن إلى البيت الأبيض، وقد صار زريبة.. فينادى على مديرة البيت.. ويأمرها أن تغسله بالفنيك والديتول بعد ما فعله كلينتون وقرايبه.. فترد مديرة البيت.. سأفعل يا سيدى، ولكن لا أعدك أن تزول هذه الرائحة التى تضايقك، فقد كان فى الحفل ثلاثة من المعازيم، إذا تواجدوا بمكان تظل رائحتهم عالقة به.. وتنتشر وتستمر وتستمر.

# لا أكتب لكم من لندن

لاشك أن من أهم الصفات التى يجب أن تتوفر فى كاتب الرحلات.. حالة التيقظ والانتباه.. والرصد والاندهاش.. ثم تسجيل مشاهداته هذه بأسلوب جذاب مثير.. حتى لو اضطر احيانا إلى بعض المبالغة والتأليف، فيحكى إخواننا الرحالة عن أسود تعيش فى سلام مع البنى أدمين، وعن حصان بأجنحة.. ونحن كقراء.. نعمل اللى علينا.. ونندهش.

وأنا أحمد الله أننى لم أعمل كاتبًا للرحلات، وأعترف أننى أفتقد إلى كل هذه الصفات السالفة الذكر، التى تصنع كاتب الرحلات. فلاتيقظ ولا انتباه.. وإنما حالة من التوهان والشرود.. والخمول أيضًا، فأنا أنام فى الطائرة، وأنام فى التاكسى من المطار إلى الأوتيل..

وبمجرد ما أن أصل إلى الأوتيل.. ألقى بنفسى على السرير.. لأرتاح من عناء النوم طوال الرحلة.. وبالتالى صعب على القارئ أن يتقبل مشاهداتى فى رحلاتى، التى أقضى معظم وقتى فيها نائمًا.. وإذا كان ولابد أن اكتب عن رحلاتى.. فأنا أعد كتابا ضخما مهولاً

عن الفرق بين النوم فى لندن والنوم فى باريس، ولكن كارثتى الكبرى أننى حينما اسافر، لا أتعجب ولا أندهش، وأتحول إلى بنى ادم جبلة مهما رأيت.. نزلت من الطيارة.. ذهبت إلى الأوتيل، وضعت الحقيبة وفتحت النافذة ونظرت إلى المنظر.. زهقت.. عاوز ارجع والله العظيم زى ما بقولكوا كده.

وأتصور أننا جميعًا حينما نسافر من مصر.. ونركب الطيارة ونربط الأحزمة.. نحن فى واقع الأمر لانسافر وإنما مصر هى التى تسافر معنا.. تمامًا كما كنت أتخيل، وأنا طفل جالس بجوار أبى فى القطار، أن الشجر وعواميد النور والبلاد هى التى تتحرك.. وتبتعد.. هكذا شعرت وأنا أرى العمائر.. والناس.. والسيارات تصغر جدا.. وتبتعد عنى؛ فالسفر حالة..

وليس معنى أننى قطعت تذكرة وختمت الباسبور.. أننى سافرت، وليس معنى أنك هنا فى بيتك ووسط أهلك أنك لست مسافرًا.. فما أكثر المسافرين بعقولهم وهم بيننا.. ولأننى عاشق ومتيم بغباوة لكل ما هو مصرى، فأنا لا أنبهر ولا أندهش لأى شىء غريب، أراه أمامى فى بلاد الفرنجة..

وهذه أولى سقطاتى ككاتب رحلات محترف.. فمنظر ولد وبنت يقفان فجأة، وسط الشارع، ويغيبان فى قبلة ملتهبة كده عينى عينك، ودون سابق إنذار.. يستدعى إلى شاشة ذهنى على الفور منظر ولد

وبنت فى شارعنا، يعيشان قصة حب أكثر سخونة والتهابًا، ولكنها لم تتعد النظرات والبصات، التى يكون مصير معظمها فى الأرض طبعا، وتلك البيوت الإنجليزية العريقة ذات الأعمدة والبوابات الرخام لا تحرك لى شعرة، بلكونة مشمسة فى ميدان السيدة، تطل منها امرأة عجوز، وهى تدلدل السَّبَت.. بالدنيا كلها...

كل منظر أراه يستدعى منظرًا آخر فى مصر أجمل وأروع بكثير.. لازلت لا أستطيع أن أسافر، على الرغم من أننى أكتب لكم من قلب لندن.. ولكن من قال إن لندن لها قلب؟ الشوارع دمها تقيل بشكل، والناس هناك لايبتسمون ولا يقدمون أى معونة لأى حد.. وقعت بنت فى وسط الطريق، وفى يدها سيجارة الماريجوانا لاتزال مشتعلة.. وقفت السيارات فى صف طويل.. الكل ينتظر البنت حتى تفيق من تلقاء نفسها، لا أحد يقترب منها أو يلمسها، لا أحد يشممها بصلة أو يلشطها بالقلم.. كلهم جالسون فى سياراتهم.. ينظرون إلى الأفق.. كأن الإشارة حمراء.. حتى الذين التفوا حول البنت.. يحملقون فيها.. يتفرجون.. وبعد ساعة ونصف جاءت سيارة الإسعاف.

ماذا يعنى الشجر الجميل.. والبحيرة.. والطبيعة الجذابة.. وحديقة الهايد بارك وأين الناس؟! أين البنى آدمين.. أنا لا أحب أن أتفرج على الصور، أنا أحب القراءة.. وهنا صعب جدا أن تقرأ أى

بنى آدم.. إنهم كتب مغلقة لاتظهر من عناوينها. ولكنهم فقط ينفذون القانون... يدفعون الضرائب.. لايكسرون الإشارات.. الالتزام حتى فى أوكار الجنس وبيوت الدعارة، ولذا لفت نظرى ذلك الشحاذ الإنجليزى المعدم، الذى وقف يقلب فى صفيحة القمامة عن بقايا يأكلها، وإذا به يجد جوافاية.. فيخرجها.. ثم ينظر بدقة إلى التيكيت؛ ليرى إذا كانت فترة صلاحيتها لاتزال سارية أم لا؟!

كنت أتسكع فى أجوار رود (أحد شوارع لندن).

وعلى مقهى بلدى.. جلست جابولى شيشة وشاى بالنعناع.. وأحضر لى طارق طعمياية سخنة وحطها لى فى بقى.. ودخل قنديل صاحب المقهى.. وقال لى أسمع دى.. بيقولك مرة واحدة وجاء الأصدقاء.. واتقلبت القعدة مسخرة.. وبعد كل هذا هل أدعى أننى سافرت إلى لندن؟! كداب فى أصل وشى.

قلت لبلال.. وهو مصرى ضخم يعمل بودى جارد حليق الرأس كعفاريت الأفلام، ولكنه بيشر طيبة وجدعنة سألته.. هوه عم محمود فى لندن ولا فى مصر؟! قال لى هنا.. ده عمنا كلنا.. أكلمهولك، قلت له.. كلمه طبعًا.. وجاءنى صوت عم محمود السعدنى.. وأنا جالس فى أجوار رود، كأنه يأخذنى من قفايا فيعيدنى إلى قهوة فى الحسين.. أنت جيت إمتى ياض يا يوسف.. إنت فين... خللى الواد بلال يجيبك.. بسرعة أحسن ح اطلع عين اهلك. عاوز أشوفك ياض يا معاطى.. وذهبت إليه..

بعد يومين استقبلنى بموشح؛ لأننى تأخرت فى الزيارة.. وجلست.. أنا وهو وأكرم السعدنى.. الرقيق جدا مرهف الحس جدا.. وقلت لنفسى.. هل هذا الشبل الوديع الجميل.. من ذاك الأسد الساخر العظيم.

ولكن.. الأسد لو تأملته قليلاً لوجدت أن به رقة.. وبه عذوبة وتنافس رقة وعذوبة أكرم السعدنى كمان.. وعلطول.. جات اللحمة.. والبطاطس والشوربة والعيش والسلطات، وكأننا فى الجيزة بالضبط، وجاءت الجرايد.. وفاتحين التليفزيون على الفضائية المصرية.. ونصب عمنا الكبير سيرك الحكايات المهولة والأفكار البديعة.. وذبت فى صالون السعدنى.. لا لم يكن صالونًا.. كان قعدة حلوة... تربيحة جميلة.. وبعد كل هذا.. هل أستطيع أن أتجرأ وأقول أننى سافرت إلى لندن، أين هى لندن؟! قول يا عم محمود.. قول يا أستاذ.

وبعد العشوة السعدنية الفخمة.. أصبحت دماغى محتاجة لنفسين معسل حلوين وطيران ع القهوة.. ألاقى مين؟! حتة السكر النبات.. الشاعر الزجال المفترى.. شفيق سلوم.. أحضان.. قبلات.. أشعار.. أبيات.. فحكايات.. قول ياسى شفيق.

وإزاى فى لندن راح أكشر
وبناتها فزدق متقشر

أغمز بعينى كده وأشَرّ
أخلف ظنونى.
وأملأ بالحب عيونى
وأوصل بقى لمستر تونى
وقولله طالب إيد تاتشر.

والقعدة عمالة تحلو.. وإذا بالناقد الكبير على أبو شادى والناقد الكبير كمال رمزى هما كمان جايين ياعينى!! ودينى ما أنا ماشى.. وفتحت المكلمة.. فى الفن فى السياسة فى الحب.. فى كل حاجة.. واختفت لندن تمامًا.. خرجت من الكادر. صارت مجرد كومبارس فى هذا الحضور المصرى الطاغى.. العجيب.. وكان هذا هو الاحتلال المصرى للأراضى الإنجليزية فى أجوار رود من قال إننا نسافر من مصر.. إننا فقط نقطع التذاكر.. ونركب الطائرة.. و.. نتظاهر بالسفر.

# جَتْ معايا كده

يقول لى فى سعادة، وهو جالس على مكتبه الفاخر، والعز يحيط به.. طيب تصدق ولا كان على بالى حاجة من اللى أنا فيه ده خالص، هيه جت معايا كده، معدى فى الشارع كفران ومش طايق روحى.. وح أفرقع ألاقيلك مين؟! واد صاحبى من زمان ودفعتى فى (الدبلوم) وكان فقر.. خدنى بالبوس والأحضان وألاقيلك سلسلة جنزير دهب فى رقبته.. قلت له إيه الوضع.. قاللى تروح البحرين؟! قلت له أروح هُبْ هُبْ، يوم فى اتنين، بقيت فى البحرين وخدتها سلكاوى بقى، ماسبتش بلد فى الخليج ماروحتهاش..

كنت أضرب إيدى فى جيبى أطلع ريالات ودراهم ودنانير وفتحت.. تشرب عصير علب.. أشرب ده حلو.. ده (كمبوت) مش من هنا، ويظل صاحبنا هذا يحكى كيف جاءت معاه كده لكل من يقابله، والكل يتحسر ويتمنى.. ياسلاااام لو تيجى معايا كده أنا كمان..

ومؤلف أغانى يقسم لى هو أيضًا إنها جَتْ معاه كده.. قاعد مع

جماعة آلاتية وبنعمل دماغ ومتسلطنين، وأنا بقى بحبوح فى قعدتى.. أحب أمسى كتير والاقى الكل حواليا عالى.. كان معانا واحد (مترب) بيغنى يعنى.. شد نفس جامد وبكر ومسًا عليا، خدت منه اللاى بتاع الشيشة، وقلت له عليا النعمة بحبك.. رص لى حجر تانى، وعمل لى كرامة فى القعدة.. خدت منه الحجر، وقلت له عليا النعمة بحبك.. الجملة نغششت فى نافوخه.. وقاللى أنا ح أخد منك الكلام ده.. الغنوة ضربت.. بقيت مش ملاحق.. وأهوه جَتْ معايا كده..

وبعمل (ألبون) جديد بقول فيه ياللى انتى بعت حبايبك وحياة أمك ما أنا سايبك.. بس (الركابة) واقفالى فى كلمة ما أنا سايبك دى مش عارف ليه.. قلت ياسيدى ولا يهمك هى الرقابة كده عالم نكدية وجَتْ معاهم كده.

ويحكى الأديب المعروف يوسف بك المويلحى أن عالما من علماء الفقه فى تركيا إستولى على قلب أحد السلاطين بعلمه وقوة منطقه وسعة مداركه، فغار منه الوزراء، وأرسل رئيسهم إلى الأزهر الشريف ليرسل أحد علماء الأزهر، ليناظره ويقهره ويسقط منزلته من عين السلطان..

ودعا الوالى علماء الأزهر، وأخبرهم برغبة رئيس الوزراء فخرجوا مغمومين خائفين من السفر والغرق؛ حيث كان السفر أيامها بالمراكب الشراعية ولا ينجو إلا القليل.. وصادفهم بائع بطيخ اسمه الحاج

حسين فسألهم عما غمهم فأخبروه، فقال.. إرسلونى أنا إلى الآستانة؛ لأننى أتمنى أن أراها، لا أبالى أن أموت فى الطريق فألبسوه جبة وقفطانا وعمامة كبيرة وأخذوه إلى الوالى، وكان تركيًا فأرسله إلى الاستانة، وهناك أقام له السلطان الأعظم وليمة، دعا إليها العالم التركى فى علوم الفقه..

فقال الحاج حسين.. إذا شاء فليتكلم، فقال له العالم التركى تريد الكلام فى أى باب يامولانا.. قال الحاج حسين باب الشعرية.. فبهت العالم التركى، فلم يدر أنه رأى من أبواب الفقه أو الحديث بابا يقال له باب الشعرية ـ فقال أسفًا.. لم يمر بى هذا الباب فاختر غيره.. فقال الحاج حسين نتكلم فى باب اللوق.. فكانت حيرة العالم التركى أكثر، وقال ولا هذا الباب اتذكره، فانصرف بنا إلى باب أخر، وظل الحاج حسين يذكر له أبواب القاهرة.. ولا يعرف العالم أنها جميعًا أبواب حديد، وليست أبواب علوم، وقام من المجلس مفحومًا..

وعلم السلطان أن عالما مصريا من الأزهر سأل العالم التركى عن أربعة عشر بابا من أبواب العلوم، فلم ينطق بكلمة، فعزله وأنعم على الحاج حسين بيا ع البطيخ بكسوة سنية ومال كثير، ورده إلى مصر أحسن رد، ولم يعد الحاج حسين يبيع البطيخ.. وسمى نفسه الشيخ حسين مفتى الديار التركية، وحينما سأله علماء الأزهر كيف استطاع أن يصل إلى كل هذا أجاب.. جَتْ معايا كده.

# الحامل .. والمحمـول

كارت أنيق وجدته أمامى على المنضدة، وضعه أمامى شاب، يبتسم فى لزوجة، وهو يقول لى بلا تكليف: إبراهيم بيه بيسلم عليك.

أمسكت بالكارت، وقرأت الاسم إبراهيم عبد الغنى.. ثم فى ظهرالكارت.. عزيزى چو.. أرجو الاهتمام بحامله.. وابأى كلمنى يا ندل.. وبحثت فى ذاكرتى عن اسم إبراهيم عبد الغنى.. فلم أتذكر.. إن شخصًا يخاطبنى بچو.. ثم.. يا ندل، لابد وأنه صديق حميم.. لعن الله الزهايمر..

قلت لحامله: معلش.. أنا أسف.. أصل الواحد فى غيبوبة.. ياريت بس تفكرنى.. إبراهيم مين؟!

أجاب الرجل الحامل:

الكذب خيبة.. الحقيقة أنا معرفهوش.. أنا أعرف سليمان بيه فتح الله.. وهوه اللى جاب لى الكارت من إبراهيم بيه.. لكن إذا كنت ما تعرفهوش.. مفيش مشاكل.. أعرفك بيه من بكره..

أديلك كارت لسليمان بيه، وهوه يعرفك بإبراهيم بيه.

قلت له في ضيق:

ومين قالَّك إني عاوز أعرفه..

أجاب في غتاتة منقطعة النظير:

وماله يا باشا المعارف حلوة.. ما تخسرش..

قلت له في غيظ: أرجوك أنا مش فاضي.. سيبك من الكروت دي.. إنتا عاوز إيه.. قول وخلصني..

أجاب في ود مصطنع:

أنا عاوز كارت من سعادتك لحسني بيه الشربيني، أنا عارف إنه صاحب سعادتك، ولا يمكن يرفض لك طلب..

قلت له في نفاذ صبر:

إنتا عاوز إيه من حسني.. إيه طلبك..

أجاب وهو يهدئ من روعي:

اهدأ يا يوسف بيه.. أنا مش عاوز حاجة من حسني بيه.. أنا بس عاوز كارت من سعادتك له عشان يهتم بيّا..

قلت له غاضبًا.. يهتم بيك في إيه ماتقول..

أجاب:

الحقيقة الخدمة اللي ليا مش عند حسني بيه.. اللي يخلص لي الموضوع بتاعي ناصف بيه عبد الحميد.. وده صاحب حسني بيه

الروح بالروح.. فأنا قلت أخد كارت من سعادتك لحسنى بيه.. وهوه يدينى كارت لناصف بيه وبس... أدى الحكاية.. معلش يا باشا.. أنا دوشت سعادتك معايا.. أنا تعبت قوى لحد ما وصلت لسيادتك شوف ياباشا..

وأخرج من جيبه روزمة من الكروت..

قلت له في غيظ:

كل هذه الكروت لكى تقابل ناصف عبد الحميد، ولماذا لم تختصر المشوار وتروح له علطول..

أجاب ساخراً. وأنا يعنى لو روحت له، إيد ورا وإيد قدام كده ح يرضى يقابلنى..

قلت له:

لماذا لم تجرب ذلك؟ لماذا لم تقتحم؟! لم تطرق الباب بشجاعة؟!

قال لى وابتسامة صفراء على شفتيه: ياباشا ما إنتا سيد العارفين هيه ماشيه كده.. وناصف بيه عشان يعمل لى الخدمة، لازم برضه يكون فيه حد يعزز طلبى..

قلت له:

ما إنتا ماقولتش لحد دلوقتى إنتا عاوز إيه من ناصف عبد الحميد،

قال لى فى فرح شكلك كده تعرفه ياباشا.. أنا عارف كلهم حبايبك.. أكيد تعرفه.. والنبى تعرفه؟!

قلت له:

أعرفه.. عاوز إيه..

قال، وهو يجثو أمامى على ركبتيه:

أنا واقع فى عرضك.. يبقى سيبك من حسنى الشربينى، ادينى كارت لناصف علطول..

قلت له وأنا أكاد أضربه قلمًا أو شلوتا فى وشه:

أكتب له إيه فى الكارت.. حدد طلبك..

قال.. حاجة بسيطة قوى.. أنا عاوز منه كارت لمنصور بيه المنياوى..

وهنا لم أطق صبرًا.. وأمسكت بالكروت كلها، وقذفته بها فى وجهه.. ومضى بعد أن لملم كروته ساخطًا، وأقسم أن يبلغ إبراهيم بيه عبد الغنى صديقى الحميم، الذى لا أعرفه، بما فعلت.. ولم يعننى ذلك بالطبع.. فأنا مستعد لأن أخسر إبراهيم عبد الغنى، وهذا الشاب حامل الكروت لن يغلب.. سيجد «وصلة» غيرى، يكمل بها مشوار كروته الطويل.. حتى يصل لا أعلم لمن.. وربما انتهت رحلته عندى فى النهاية، بل ربما كانت خدمته عندى.. كم أكره الكروت والوسايط والتوصيات..

يأتينى شاعر وقبل أن يقدم لى شعره.. يقدم لى كارتا من فلان.. ومطرب قبل أن يسمعنى صوته.. يسمعنى صوت فلان على المحمول

يوصينى عليه، وهذا ليس له معنى، سوى أننا فقدنا الثقة بالموهبة والإمكانيات الحقيقية، وفى قدرتها على إثبات الذات..

وفى فرنسا أيام الحرب العالمية.. كانت الوسايط على أشدها.. وكان الجندى الذى له سند، يستطيع أن ينتقل بالواسطة إلى مواقع أكثر أمنًا من هؤلاء الغلابة، الذين يلقى بهم فى الصفوف الأولى..

ويحكى أن رجلاً دخل الجيش وعين جنديًا، ولما وجد الظروف سيئة.. وأنه ليس لديه واسطة حاول أن يترك الجندية، فذهب إلى طبيب الفرقة، وشكى له ضعف بصره، فسأله الطبيب..

كيف تثبت لى ضعف بصرك..

فقال الجندى.. المسألة فى غاية البساطة يادكتور.. هل ترى هذه الشجرة البعيدة التى هناك..

فأجاب الطبيب.. نعم..

فقال الجندى.. حسنا.. أنا لا أراها..

وحكاية أخرى طريفة جدًا حدثت فى ألمانيا.. حينما ذهبت قرينة ولى العهد إلى صاحب أحد المخازن، كان يطلب فتاة لتساعده فى البيع، ورأت الأميرة أن تقصد صاحب المخزن لتوصيه على أنسة كانت قد لجأت إليها.

دخلت الأميرة المخزن، وقد صبغ الحياء وجهها، وقالت مترددة:

قرأت إعلانك فى الجريدة وعلمت أنك تريد فتاة لتساعدك..

فابتسم التاجر ولم يكن يعرف الأميرة، وظن أنها التى تريد الوظيفة ووضع يده على كتفها قائلاً:

بكل أسف يا ابنتى لا أرى شكلك مناسبًا.. ولكن لا بأس عودى لى بعد شهر، وأحضرى معك ما لديك من شهادات.. ثم هتف بها قائلاً: ما اسمك يا ابنتى؟!

قالت: سيسيليا

قال: هل أنت متزوجة؟

قالت: نعم

قال: وما صنعة زوجك

قالت: الآن.. لاشىء.. ولكنه سيكون يوما ما.. إمبراطوراً.

# غُـنا القاهرة

المثل الشعبى يقول (إبعد عن الشر.. وغَنِّيله) وهو مثل يهدف طبعا إيثار السلامة وتجنب المواجهة، وإذا تصرفنا جميعا هذا التصرف مع الأشرار.. ولو كل واحد فينا أخد له ركن بعيد هادى، وقعد يغنى لأصبح الشر محاطًا بأوبرا أو سيمفونية رائعة من الغناء..

فهذا رجل بلطجى داخل عليك بعينين جهنميتين وفى يده سنجة.. ماذا تفعل؟.. تسيبه وتجرى علطول.. وتقف فى البلكونة تغنى.. عاليادى اليادى.. يا قلوب متدارية. يا قلوب متدارية.. ياما جرح الورد أيادى.. حتى الجناينية.. ويرد عليك الجيران فى كورال رائع.. حتى الجناينية.. حتى الجناينية.

وهذا موظف رمى فى وشك الطلب.. وقام متنمرًا لكى يعتدى عليك.. ماذا تفعل؟.. اوعى من وشه الساعة دى.. تطلع بره الأوضة فورًا.. وتقف فى الممر.. و.. تديها.. كل دقة فى قلبى بتسلم عليك يا واحشنى من زمان، فين نور عينيك.. ويرد عليك بقية المواطنين فى كورال أكثر تأثيرًا.. يا واحشنى.. يا واحشنى.

باختصار شديد.. لا تواجه.. ولا تعمل فيها عنتر.. وضع فى رأسك مقولة دارون إياها.. البقاء للأقوى.. طيب.. واللى صحته مش مساعداه زى حالاتك؟ ليس أمامه سوى أن يفعل شيئين يبعد.. و.. يغنى.. وتغنى بمزاجك أحسن ما تغنى غصب عنك.. فالأشرار أصحاب مزاج.. ولا تستبعد أن يأتوا بك فى أى وقت.. ويصرخ فيك القوى الشرير آمرًا.. غنيلي شوى.. شوى.. وهنا ستغنى وتتسلطن ورجلك فوق رقبتك.

وتحكى لنا الأسطورة أن الملك مينا موحد القطرين، بعد أن جلس على العرش وليس التاج المزدوج، وقف المنشدون من بعيد يغنون له.. مينا.. مينا.. مينا.. كلنا كده عاوزين مينا.

وفى حياتنا العائلية مواقف تتطلب البعد والغناء.. داخل بيتك ساعة الغدا فى عز الحر.. لقيت المدام ضاربة البوز إياه اللى أنت عارفه ده، ولقيت صهد بعيد عنك طالع من وشها.. وبدأت التلكيك اللى إنتا حافظه صم.. إيه اللى أخرك؟ اقلع الجزمة عند الباب.. مالك مبسوط كده ليه؟.. هذه الأسئلة التاريخية، التى قالتها الملكة نفرتارى للملك رمسيس الثانى، وهو راجع من الرمسيوم.. إنتا هنا؟.. ماذا تفعل؟.. أولا إبعد لّى النار عن البنزين.. ع الحمام علطول.. ودش جميل.. وإديها.. اللى يفتح عليك ربنا بيه.. دور.. طقطوقة.. أى حاجة.. ياللا خش ع المقام.. نويت أبيعك خلاص نويت.. الله ياست منيرة.

إن البعد عن الأشرار والغناء لهم حل مصرى عبقرى، وهو خلاصة التجربة المصرية الطويلة فى الحياة آلاف السنين.. قلت هذا لصديقى الضعيف، الذى يشكو من تفشى قوى الشر وتهديدها له فى كل لحظة.. كل لحظة..

قلت له الوصفة البلدى السحرية.. إبعد.. وغنى.. قال لى إبعد أروح فين؟ دول فى كل حتة.. وأغنى إزاى؟ أنا صوتى وحش.. وتركنى، ولكنه يبدو أنه راجع نفسه.. وعمل بنصيحتى.. الآن هو بسم الله ما شاء الله.. عامل ست ألبومات..

تريللا ضخمة ع الطريق.. والسائق بيزنق عليك، وأنت فى سيارتك التى هى فى الأصل (ميدالية).. حتعمل لى فيها عفريت ومقطع البطاقة وتزنق عليه؟.. ح يفعصك.. تقوم تعمل إيه؟ تبعد عنه خالص.. وتأخذ يمينك وتقعد فى عربيتك زى الباشا كده و.. تغنى.

عندك أنا مثلا سيارتى سرقت خمس مرات من تحت البيت، وثرت وقلبت الدنيا، ورحت القسم، وما جاليش أى حاجة.. جالى السكر.. والنهارده الصبح قمت لقيتها مسروقة لسادس مرة.. ماذا أفعل؟ وقفت.. أغنى فى البلكونة بروقان.. تمللى معاك.. والأغنية بها، كما ترون، إسقاط واضح وحقد دفين على اللص، الذى اعتبرنى مصدر دخله الأساسى.

انظروا إلى العصافير الجميلة.. إذا اقترب منها حيوان مفترس.. ماذا تفعل؟.. تطير بسرعة مبتعدة من أمامه، وتبدأ فى الزقزقة الرائعة، فتملأ الكون بهاء وبهجة..

ومن الأشياء المعروفة عن طبائع الحيوانات أنها حينما تسمع زئير الأسد أو تشتم رائحته.. تنخلع قلوبها، وتفقد رشدها وتسىء التصرف، فبدلاً من أن تهرب من طريقه، تجدها تجرى دون وعى وتلقى بنفسها فى أحضانه، فيظن الجاهل بطبائعها أن تلك الحركة حركة هجومية، بينما هى هجوم معكوس، تقوم به أعصاب مختلة.. فتسعى بها إلى موت أكيد ومصير محتوم..

إن الاختلاف مع الأقوى.. لا بد منه بالتأكيد.. ولكن الأكثر بدا منه أن تملك القدرة على هذا الاختلاف.. وقد جمعتنى جلسة مع ملاكم محترف يهوى الأدب، وقال فى معرض حديثه إن زوجة العقاد هى التى وفرت له الجو الملائم لكى يبدع.. فقلت له معتذرا.. ولكن العقاد لم يتزوج.. هنا بدأ يتوتر حينما أحس بجهله.. ووجدت عضلاته تنفر من تحت كم القميص.. فقلت له مستدركًا.. جايز، فأجاب بعنف.. لأ.. كان متجوز.. بالله عليكم إذا تمسكت برأيى وتطور الموقف، ماذا كنت سأجنى فى النهاية؟ خلاص ياعم كان متجوز.

أنا لن أقل عقلى وأعمل مثل زوجة لينين. . التى كان لها شأن كبير فى روسيا، بعد وفاة زوجها لينين مفجر الثورة الروسية. . وذات يوم اختلفت مع (ستالين) الديكتاتور المرعب حول نظام التعليم فى روسيا. . فما كان من ستالين إلا أن ضاق بها صدره، وهددها أن يعين (أرملة) أخرى للينين. . وكان يستطيع أن يفعلها أو على أقل تقدير يحدد إقامتها. . مع زوجها طبعًا.

# حظ عوالم

في سيمفونية القر اليومي التي نعيشها هذه الأيام.. تجد تعبيرات مثل الأكليشيهات صارت على الألسن.. مثل «.. ماشية معاك.. البلية لعبت.. ده عدى يابا..».

الغريب أن هذا الكلام تردده كل الطبقات بمختلف درجاتها.. ولا يخلو أى مكان يجلس به بعض الناس، إلا من وصلة من القر والحسد، وكأنه مشروع الحقد القومي مثل مشروع تحديد النسل.. أو مثل مشروع المرور.. ويعتب الكثيرون على الحظ؛ لأنه يختص ناساً برعايته وعطفه، بينما يتجاهل أخرين.. ربما كانوا أحق من غيرهم..

و «حظ عوالم».. هو تعبير عن الحظ حينما يعطى بلا حساب.. كالنقوط ينهال على رأس العالمة والفرقة.. ولكن الحظ ليس أعمى، ولا يذهب إلى الناس بشكل عشوائي.. وإنما يختار بدقة هؤلاء المحظوظين بالذكاء ويذهب إليهم..

ويحكى أن رجلاً يدعى «خسرو» جلس في حزن أمام بستانه القفر. وأرضه الجدباء، ينعى حظه التعس.. حيث إن زراعته تتلف كل عام، بينما يجني أخوه «فيروز» من أرضه أطيب الثمرات، وقال

لنفسه فى غيظ وغل.. يارب.. إن بستانى بجوار بستانه وزرعنا يشرب من الماء نفسه، ويتغذى على التربة نفسها.. فلماذا أصل إلى هذه الحالة المتردية، وهو...

وقرر «خسرو» أن يذهب ليلاً إلى بستان أخيه، ويفسد الزرع ويدمر الأشجار والأزهار.. وفجأة انتصب أمام عينيه شبح غريب يضحك فى سخرية، وهو يقول:

«هل تتصور يا خسرو أنك تستطيع بسهولة أن تنزل الأذى بأخيك..

وارتجف خسرو، وسأل الرجل:

من أنت..؟

فقال الشبح: أنا حظه.. حظ أخيك ولكنى ساهر عليه.. مهتم بأموره.. اذهب يا أخى، وايقظ حظك النائم بدلاً من أن تحقد على الناس.

قال خسرو يائسًا:

وأنا ليس لى حظ.. فقال له الشيخ:

كل واحد فى الدنيا له حظه، ولكن حظك للأسف من الحظوظ النائمة.. هيا إذهب إليه.. وأيقظه.

وبدأت رحلة خسرو فى البحث عن حظه.. وبينما هو سائر بين الجبال.. برز له أسد عظيم هجم عليه.. فبكى خسرو، وحكى له حكاية سعيه وراء حظه.. فرق له قلب الأسد.. وتركه يسير، ولكنه

اشترط أن يسأل خسرو حظه حينما يلقاه فى أمر يؤرقه، وهو أنه مهما أكل لا يشبع، فوعده خسرو بذلك ومضى فى طريقه.. فوجد رجلاً عجوزًا يقذفه بالصخور وكان يبدو حزينًا..

وحكى له خسرو القصة.. فطلب منه الرجل العجوز أن يستشير حظه هو الآخر فى مشكلة.. وهى أنه يملك كنزًا عظيمًا، ولكنه لا يقدر على الانتفاع به.. فوعده خسرو بذلك ومضى.. ليقع هذه المرة فى إيدى حراس مدينة عظيمة، مكبلاً بالسلاسل، وألقوه بين قدمى الملك، الذى كان عنده مشكلة هو الآخر.. إنه يشعر بالسأم والشقاء ويريد العلاج..

وانطلق «خسرو» الباحث عن حظه، حتى وجد نفسه فى واد عميق ولمح شخصًا نائمًا، فأيقن أنه حظه، فهرول إليه.. إصحى ياعم.. إصحى.. فقرتنى.. واستيقظ النائم.. وقال حينما رأى خسرو.. خسرو.. أنا حظك، لا تؤاخذنى يابنى.. مادمت قد أيقظتنى.. اطمئن ح تفتح معاك.. والبلية ح تلعب.. وح تعدى.. ولكن الفرص الكثيرة تحتاج إلى من يغتنمها، وقص عليه خسرو.. حكاية الأسد.. والعجوز.. والملك.. وأسئلتهم التى لا يعرف لها جوابًا.

فقال له حظه..

اطمئن.. سر فى طريقك، وسوف أوحى لك بالإجابة فى وقتها..

وعاد خسرو من حيث أتى راجعًا.. ومر على الملك.. وما إن مثل أمامه حتى وجد نفسه يقول.. أيها الملك إن سبب شقائك وألمك.. أنك امرأة وتخفى على شعبك ذلك.. فاعترفى بالحقيقة وابحثى عن زوج يشاطرك متاعب الحكم.. حينئذ ستجدين السعادة الهاربة من بين يديك، قال الملك وهو يخلع تاجه.. فينسدل شعره الأسود الطويل.. صدقت ياخسرو.. والآن سأصارح شعبى بالحقيقة وأتزوجك انت.. لتصبح ملكًا للبلاد..

هنا قال خسرو لنفسه:

وهذه بداية حظى، لابد وأن حظى سيقودنى إلى أحسن من ذلك.. فاعتذر للملكة.. ومضى إلى سبيله حتى وجد الشيخ صاحب الكنوز..

فقال له:

ياشيخ سبب مأساتك أنك قتلت الكثيرين وتخاف انتقامهم، وليس أمامك من علاج، إلا أن تجد رجلاً يحميك، ويبعد عنك الشبهات وتقتسم معه كنوزك..

قال الشيخ: هذا صحيح يابنى، وأنت الرجل الذى سأقتسم معه كنوزى..

قال خسرو:

أسف... سيقودنى حظى إلى ما هو أعظم.

وسار خسرو حتى قابل الأسد وحكى له ما حدث، وما عرض عليه فى رحلته.. المال والملك.. فقال الأسد مندهشًا..

ولكنك ضيعت على نفسك فرصتين ذهبيتين.. فهز خسرو كتفيه قائلاً: خلاص.. حظى اتفتح.. سيأتى ما هو أفضل من كل ذلك.

فسأله الأسد: وما علاج مشكلتى أنا.. قال خسرو:

إن علاج جوعك الدائم وشهيتك المفتوحة أن تلتهم رجلاً غبيًا، فقال الأسد:

وأنا وجدته بالفعل.

فسأله خسرو: من هو..

قال الأسد:

أنت.. فهل هناك أغبى منك... لقد قدم لك الحظ فرصتين.. فلم تغتنم أيا منهما، فماذا تريد من الحظ أكثر من ذلك؟!.. ثم إنقض عليه وأكله..

وانسدت نفس الأسد بعدها عن الطعام.

تذكرت هذه الأسطورة، حينما كان أحدهم يلعن ويسب فى حظه.. فقلت له ياصديقى.. الحظ أيضًا يحتاج لمن يوقظه.. يهزه.. يفوقه..

لا تستسلم لليأس ولا للحقد وتقوللى رحت أصحيه.. لقيته.. البقية فى حياتك، فالحظ لا يموت طالما أنت على قيد الحياة.. وليس الحظ أن تجد شنطة فيها مليون جنيه.. فقد تجدها ويأكلك الأسد كما فعل خسرو، وإنما الحظ أن تفكر فى مليون فكرة، وتطرق مليون باب فيهديك الحظ إلى ما لم تكن تتصوره ولا تتخيله من السعادة والنعيم.

# أفرح.. ارقص.. غنى

باختصار.. نحن فاشلون فى التعبير عن السعادة، بينما إحقاقا للحق نحن جميعا عباقرة فى التعبير عن الكآبة والحزن والمشاكل.. ولذلك فحياتنا وحوارنا اليومى ما هو إلا شكوى من الاضطهاد، أو بكاء على الأطلال، أو أزمة ما لا نستطيع الخلاص منها..

فالفرحة إحساس نعيشه فقط ولا نعبر عنه، بل إننا نخشى التعبير عنه مخافة الحسد، بينما الألم.. يا عينى عليه.. يكسبنا مقدرة فذة على البوح..

مالك ياسيدى.. يتنهد فى أسى ويقول.. أنا خلاص زهقت من العيشة واللى عايشينها.. أنا ماكانليش الجوازه دى.. مراتى دى تموت وتنكد عليا.. مزاج عندها.. عندك امبارح.. عارف عاملالى إيه.. أسأله.. إيه، يقول فى غيظ: قلقاس.. أهو أنت صاحبى مش مراتى.. وعارف رأيى فى القلقاس.. أنا شفته على الترابيزة اتجننت رحت واخد الطبق ومطوحه م البلكونة.. يقع على مين أسأله مين.. يرد: على دماغ صاحب البيت.. وأنت عارف صاحب

البيت راجل كشر وبيتلكك ورأسه وألف سيف يودينى القسم.. أسأله ورحت القسم.. يجيب فى أسى.. رحت ياسيدى ألاقيلك مين هناك.. أسأله مين. يرد: المقدم عبد النبى، وأنت عارف إن كان فيه كلاش بينى وبينه.. وما صدق جات له لحد عنده.. وراح عامل محضر مضبوط.. بغل..

وظل صاحبنا هكذا يشكو من الدنيا كلها.. ويحمل زوجته المسئولية الكاملة عن الكآبة التى يعيشها، ونسى صاحبنا أنه فى فترات العسل والوئام والود مع زوجته صانعة القلقاس.. لم يكن يذكرها أمامنا أساسًا.. فحينما كانت تعمل له الفاصوليا التى يحبها وتودعه بقبلة عند الباب لينزل من بيته وهو فى قمة السعادة.. لم يغلط يوما ويقول لنا.. أنا مبسوط قوى.. أنا سعيد مع مراتى.. وحينما كان يأتى هو وصاحب البيت الكشر إلى القهوة ويلعبان الدومينو معا وهما يقهقهان.. لم يكن يعبر عن فرحته به كجار وصاحب بيت مثالى.. والمقدم عبد النبى فى أيام الصفاء والحب.. كانت قعدة صاحبنا المفضلة عنده فى القسم.. ولكننا لا نستطيع أن نقبض على السعادة، ونمسكها بأيدينا كما نفعل مع الكآبة.. فأنت حينما تنزل فى البانيو مستسلمًا لحمام دافئ جميل فى استرخاء خرافى رائع.. لا تتكلم.. تتكلم فقط إذا الميه انقطعت أو البلاعة انسدت.. هنا تصرخ.. وتشكو.. وصوتك يجيب آخر الدنيا..

يجلس فى وهن، ويبدأ القعدة بجملة كلاسيكية.. مش عارف ياأخى الصداع ماسكنى.. ح يموتنى.. وقبل أن أعرض خدماتى.. يسبقنى ويقول لى واضعا كفه فى وجهى.. أخدت.. أخدت كل حاجة.. مش عاوز يحل عنى.. لأ وإيه.. الحتة دى.. يمسك بجنبه، ثم يمسك يدى ويضعها على جنبه.. أيوااه.. هنا.. نغزه مش عاوزه تسيبنى.. ثم يسد علياً كل الطرق... شربت نعناع وجنزبيل.. ماخليتش..

إذا هو يعرض علىَّ مشكلة مستحيلة الحل.. لماذا يعرضها أساسًا.. هل مثلاً لانه يريدنى أن أشاركه إحساسه بالألم.. ماشى.. ولكنه لماذا لم يعرض عليا هذه الشركة، حينما كانت صحته زى البمب، لماذا لم يمسك يدى ويضعها على قلبه اللى زى حديد.. ويقول لى.. قلبى زى الفل سامع، ثم يضعها على معدته ويقول فى سعادة شايف معدة تهضم الزلط.. أنا مية مية..

لا أحد يفعل ذلك بالطبع.. لأن الإخوة السعداء يغلقون سعادتهم على أنفسهم، حتى لا يتعرضوا للوم الأخوة المكتئبين.. إيه يا سيدى يعنى رايق ومفرفش ولا على بالك.. شكلك صغرت عشرين سنة.. شوف مزقطط إزاى؟! وشه ح يفلَّق من الانبساط.. هنا يدافع الأخ السعيد عن نفسه بسرعة قائلا: ده من بره بس، والله الواحد جواه بلاوى بس ما بيحبش يتكلم.. إنت عارف أنا عليا

شيكات بكام.. بلاش.. امبارح باقيس السكر طلع تلتميه وحاجة.. ده أنا في دوخة... هكذا انتصرت الكآبة على السعادة، التي حاولت في لحظة طيش أن تعبر عن نفسها.. قالها توفيق الحكيم نفسه.. لو كانت قصتي سعيدة لما كتبتها.

إن الذكريات الحزينة هي الأولى بالتسجيل.. وعليه فإننا نفسد لحظات السعادة نفسها باجترار اللحظات الأليمة.. وقف في غرفة العمليات ليتلقى مولودته الأولى.. بنت زي القمر.. زغاريد.. وفرحة.. أخذها في حضنه.. و.. وبكى.. ليه يا كئيب.. بتعيط ليه دلوقتي.. يرد.. أصلي افتكرت أمي.. كان نفسها تشوف خلفي..

وآخر ذهب ليرى نتيجة آخر العام.. ناجح.. جيد جداً.. فينهار في البكاء.. مالك ياغم.. افتكرت تعبي طول السنة وكدت أجن.. متى نفرح إذاً؟! وكيف تعبر عن سعادتنا.. صدقوني إنها مشكلة، الكلاب حلت المشكلة.. فهي حينما تسعد تهز ذيلها.. والحمير أيضا حلتها.. ترفس رفسة طفولية بريئة.. ثم تنهق في سرور وتمرغ نفسها في الأرض.. نريد أن نجد صيغة أدمية للتعبير عن الفرحة.. قال لي صديقي في سعادة.. إنت معك حق ملعون أبو النكد يا راجل و.. أي.. ورفسني حتة رفسة!!!.

أعزائي.. في بداية القرن الماضي.. كانت مشكلة العلماء

والفلاسفة هى الوصول إلى السعادة.. ووصلوا.. اعتقد أن مهمتنا نحن هى كيفية التعبير عنها.. نفسى أبص من البلكونة ألاقى واحد ماشى.. أعرف أنه سعيد.. أحس أنه سعيد.. لابد وأن تكون له مشية معينة.. ويهز رأسه ويتمايل ويلاعب حواجبه.. يغمز بعينه.. يفعل كل هذا ومحدش يفهمه غلط.. ألا يفعلها الطفل البرئ فى سنواته الأولى.. فلماذا نكبتها حينما نكبر.. ثانية واحدة... طرق على الباب.. افتحه.. يا للروعة.. هذا هو الرجل الذى انتظره.. شاب وسيم مبتسم جدا.. كل عضلة فى جسمه تقولها.. أنا سعيد.. أهلا وسهلا.. ده أنا.. يرد السلام ببهجة أكثر.. ويقول.. أنا سعيد.. يرقص قلبى من الفرحة.. وأنا أسعد.. إنه يعترف بها من أول كلمة.. يكررها.. هنا تتغير ملامحه، ويصرخ: بقولَّك أنا سعيد من مصلحة الضرائب.. وعاوزينك.. هنا ابتسم من روعة المفاجأة.. أخيرا افتكرتونى.. ده أنا زعلان منكوا زعل.. أنا محضر لكوا الفلوس من زمان.. ياللا بينا.. انزل معه فى سعادة لاننى ذاهب إلى أجمل مشوار فى حياتى.. سأدفع الضرائب.. من أجل أن يرصفوا الشوارع ويحسنوا الخدمات للناس... يا سلاام على السعادة.. لامطبات ولا عوادم سيارات حياة سعيدة.. ياللا.. ياللا يا سعيد..

# اتفضل خد إللى إنتا عاوزه

فى كثير من أفلامنا يحدث هذا المشهد.. البطل واد شقى، لايفكر إلا فى البوس والأحضان، ويتحرش بالبطلة طول الفيلم.. تحت بير السلم.. فى بلكونة المطبخ.. فى أى فرصة تذهب فيها أم البطلة لكى تجهز له مشروبا، يشربه بالسم الهارى.. فى أى لحظة اختلاء.. يتوقف الحوار، ويبدأ حوار الأيدى.. إيده طويلة قوى البطل ده.. يمسكها من خصرها.. يشدها نحوه.. يحاول تقبيلها عنوة.. والبطلة تقاوم والبطل لزقة.. إلى أن يفيض بها الكيل وتذهب إليه فى شقته.. هكذا من تلقاء نفسها.. وهى فى شدة الغضب، وتنظر له بغل ثم تفتح القميص الذى تلبسه فى جرأة فينكشف صدرها وتقول له فى تحد وثورة.. أهوه.. أنا قدامك.. إذا كان ده اللى إنتا عاوزه اتفضل.. لكن قلبى عمرك ما حتطوله..

هنا.. ينكسر البطل وينظر بخجل إلى الأرض، ثم يسترها ويقفل قميصها بيده، وقد أثر فيه الموقف.. ويحدث هذا بأمر المخرج طبعا.. تحول جذرى فى شخصية البطل فيكف عن ملاحقته لها

ومعاكساته وقلة أدبه؛ لتبدأ العلاقة تأخذ شكلا جديدا هو الرومانسية، وأود هنا أن أحذر الفتيات اللاتى يشاهدن المشهد من اللجوء إليه فى الواقع.. لعدة أسباب أولا لأنها من الجائز جدا أن تفتح قميصها فى جرأة وتحد وتقول له اتفضل.. خد اللى أنت عاوزه، فيكون حبيبها رخم وغتيت، فيتفضل وياخد اللى هوه عاوزه، فهذا التحول الأخلاقى الذى يتم فى شخصية البطل بأمر المخرج، ليس ضروريا أن يحدث فى الحياة، فإذا كان أحمد مظهر قد فعلها مع فاتن حمامة.. وقصَّر الشر.. فى فيلم دعاء الكروان فهو لم يكن وحده.. ولم يكن الأمر بيده.. كان وراؤه طه حسين وبركات.. والمصورون وعمال الأستديو.

كما أن المنطق لا يتفق مع هذا التغيير الأخلاقى المفاجئ فى موقف البطل بعد أن فتحت البطلة قميصها؛ لأنه فى الواقع يلهث طول الفيلم من أجل هذه اللحظة بالذات.. وبالتالى فلا أجد تهديدها له بأنه لم يطل قلبها، مهما فعل تهديدا ذا قيمة، مثل واحد ح يموت على التفاح، وأنت تعطيه التفاح، وتهدده أن تحرمه من التين، ثم أنه لو كان باحثا عن قلبها لسلك طريقا آخر من البداية.

والذى يطمأن قلبى أن فتيات هذه الأيام لن يكررن المشهد أنهن لايرتدين فى الغالب قمصانا بأزرار، وإنما بوديهات واستريتشات، وبالتالى فهن لسن فى حاجة لأن يقلن للواد الشقى إياه.. اتفضل

خد اللى أنتا عاوزه. الأصح.. اتفضل نَقّى اللى إنتا عاوزه.. ولكن السؤال: لماذا يكش البطل حينما تواجهه البطلة بهذه الجملة الجريئة.. وهو الذى كان منذ ثوانٍ معدودة الحصان الجامح.. لماذا يتراجع وينكسف على دمه فجأة؟ طيب.. وإذا حدث واستمر هذا الكسوف، وأصبح عقدة بعد أن أحبها حبا رومانسيا وتزوجها فى الحلال.. وهو لا يزال مكسوفا لم يتفضل ولم يأخذ اللى هو عاوزه.. كيف يمكن أن نعالج هذا الموقف؟ أعتقد أنها ـ الزوجة ـ ستعالجه أيضا ح تقول له طلقنى وخد اللى أنت عاوزه.

أنا أعلم أن الرومانسية تحاول أن تتعامل مع القيم الإنسانية العليا.. تحاول أن تترفع عن رغبات الجسد وتطير وتحلق عاليا، ولكن لا يجب أن نضع العربة قبل الحصان، وأم كلثوم قالت «أنت مابينك وبين الحب دنيا.. دنيا ماتطولها ولاحتى بخيالك»، وهذا هو التعبير المضبوط.. مش تفتح له القميص وتقول له.. تقدر تاخد منى كل حاجة إلا قلبى!! ده بأه استعباط رسمى.. فلم أسمع رجلاً يشكو، وهو على علاقة كاملة مع واحدة.. إنه مش طايل قلبها.. ولكن كثيرين امتلكوا قلوب حبيباتهم، ولم يلمسوا حتى أطراف أصابعهن.. وصديقى الخبيث، الذى لن أذكر اسمه لأنه عارف نفسه، المحاط بعدد من الجميلات متفجرات الأنوثة هو أكثر المستفيدين من هذا المشهد.. فكلما فاض الكيل بإحداهن من

ملاحقاته لها.. تصرخ فيه.. اتفضل خد اللى إنتا عاوزه إلا قلبى.. هنا لا يتردد ويأخذ اللى هوه عاوزه، ويترك لها قلبها عن طيب خاطر وظل صاحبى هكذا.. حتى أنه الآن مش عارف ياخد إيه ولا إيه!!

وسألنى وأنا أوصله إلى المستشفى.. النهاية الطبيعية لأمثاله.. سألنى معاك فلوس؟ قلت له اتفضل خد اللى انت عاوزه..

فسقط على الأرض بمجرد ما أن سمع الجملة.. ويستاهل.. وهن أيضا يستاهلن، الجنس ليس بضاعة نعطيها ونأخذها، والجسد لا يقدم كأنه طبق محشى.. فالقلب وهم.. أكذوبة.. الجسد هو القلب.. هو الإحساس.. وإذا كانت بطلتنا الجريئة تريد أن تعاقب البطل السافل على قلة أدبه فتقول له اتفضل.. فلا يصح هذا دراميا إلا إذا كانت وحشة، وتقطع الخميرة من البيت.. هنا يتأدب البطل ويتحجب كمان..

فى مهرجان القاهرة السينمائى، دخلت أسطورة الأنوثة الدائمة صوفيا لورين بفستانها المعجزة.. الذى أظهر حنانها الواضح وحبها لمصر.. وكم تمنيت أن أضايقها.. استفزها.. أزهقها.. ربما عاقبتنى عقاب المشهد الشهير، وتصرخ فيًا.. أتفضل خد اللى إنتا عاوزه.

# لاتوجد مساحة للأباحة

من الجنة هبط الإنسان إلى الأرض.. إلى الدنيا يدخلها عاريا ويخرج منها عاريًا.

والشيء العجيب ان المرأة بقالها كتير قوى فى الدنيا.. ومع ذلك لاتزال تشد الانتباه وتلفت الأنظار.. وتلهب المشاعر والأحاسيس إذا تعرت قليلا.. ولايزال الفيلم (المناظر) يحقق أعلى الايرادات ولايزال العرض مستمرا.. بين عرى النساء وهبل الرجال، ولاتزال اندهاشة الرجل حينما يرى امرأة تتعرى تعبر أصدق تعبير عن حالة العبط الازلى لديهم، يقول لزميله وهما فى السينما.. شايف ياله.. دى ح تقلع.. يرد زميله دون أن ينظر إليه عليا النعمة لو قطعوا المشهد لاكسر لهم السيما..

وعليه صارت وظيفة مدير الرقابة من الشخصيات التى لها نجومية خاصة.. والجمهور يعرف أساميهم، ويشكرهم أحيانًا، ويلعن أبو خاشهم كثيرًا، وفى أستراليا ملطى مليونير مجنون تفتقت عن ذهنه فكرة جهنمية.. أن يؤسس مكتبة ضخمة لايدخلها إلا رواد عراة.. وأمينة المكتبة التى تستقبلك عارية كذلك.. وكل من يشتغل فى المكتبة كما ولدته امه..

ويقول رواد المكتبة إن جلوسهم عراة، وهم يقرأون يشعرهم بنوع من التحرر والانطلاق، كما أنه يساعدهم على التركيز بصورة كبيرة، ولا أعلم إذا حاولت الانضمام إلى المكتبة، فهل سيسمحون لى أن ألبس حتى.. نضارة!!

ودخلت المكتبة.. أنا وصديقى الملط فى مكتبة العراة، الكل منكب على كتاب أمامه ومستغرق تمامًا فى القراءة.. ما أروع الثقافة حينما تشغلنا عن نوازع الجسد ورغباته البهيمية.. هذا ما همست به لصديقى الذى قال لى بحزم.. طيب اقعد ما تفضحناش.. أحاول أن اسحب كتابًا من على الرف بسرعة.. أريد أن اندمج.. أى كتاب أحط غلبى فيه.. ولكن الكتاب مزنوق.. معَصْلَج.. اطلع فى يومك ده.. تتحرك المرأة الجميلة، التى كانت مشغولة بقراءة الكوميديا الإلهية لدانتى.. وتقترب منى وتقول فى أدب جم.. تحب أساعدك.. اقول لها أبوس إيدك، مش عاوز أى مساعدة عشان خاطرى.. بلاش منه الكتاب ده خالص.. وأسحب أول كتاب تقع عليه يدى، وألقى برأسى بين دفتيه، وتذكرت النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال وجسمها كله بره..

بعد فترة من تمالك النفس والقبض على الذات.. اكتشفت أن كتابى المنقذ هذا ما هو إلا الأعمال الكاملة لتشيكوف.. فكان بمثابة طوق نجاة.. أنا أعشق هذا الرجل.. ما أروع البساطة والعمق حينما يلتقيان.. إن شخصيته الرائعة العذبة كالماء الرقراق، تظهر دائمًا هناك

فى الخلفية، وأنا اقرأ أعماله، كأنه يعطينى القصة لاقرأها ويجلس هو أمامى على... استحياء وفى طيبة، وهو يبتسم.. كأن هذا العملاق ينتظر رأيى... يراقب ردود أفعال ماكتبه على وجهى.. إذا ابتسمت.. يخجل.. وإذا قلت له الله عليك.. يقول.. يا عم ما تقولش كده، ثم كالعادة يصدمنى صدمته القنبلة بنهاياته العبقرية.. ياه ياساتر ياه.. هذا ما أقوله لنفسى بعد كل نهاية تشيكوفية مفاجئة.. أدوب مع تشيكوف.. ثم أسرح وأشرد واستطعم المعانى.. كتاباته مثل المانجة، سواء أكلتها أو لم تأكلها بعد، تظل رائحتها تملأ انفك..

تقترب منى المرأة المثيرة التى حاولت مساعدتى وتسألنى.. ما الرواية التى تنصحنى أن أقرأها؟! آخذها من يدها بكل بساطة ونقف أمام المكتبة عاريين تماما.. واشير لها.. ابدئى بالأم لجوركى.. والحرب والسلام لتولستوى مهمة للغاية.. وإذا كنت تحبين الرواية الإنجليزية، فأنصحك بقصة مدينتين لتشارلز ديكنز.. ومرتفعات وذرنج لإميلى برونتى.. تقول فى حياء جم مرسيه، أرد ببساطة على إيه.

يقترب منى صديقى ويهمس لى.. يعنى أخذنا ع الجو، خلاص ياعم، وبقينا رايحين جايين فى المكتبة قلت له أى جو؟ قال بخبث ألم يعد يؤثر فيك كل هؤلاء العرايا امامك.. قلت له.. أنا لا أرى أى عرايا.. أين هؤلاء العراة.. لقد ألبسهم تشيكوف كامل ملابسهم.. ياعزيزى الثقافة والأباحة لا يلتقيان.

# تعرف إبراهيم؟!!

خرج الناقد المهم بعد العرض، وجلس فى سيارته فى شارع جانبى فى انتظار الوجه الجديد، التى وافقت على دعوته للعشاء..

ركبت بجواره فى دلال، ففاح عطرها المثير ودخل فى نخاشيشه وتطاير شعرها الجميل على خده، وهى تهتف به هه يا أستاذنا..

إيه رأيك فى الرواية؟

قال لنفسه فى ضيق: وهل هذا وقت النقد؟! ثم تجهم قليلاً، وهو يحاول أن يرد قائلا.. هذا الممثل الجديد الذى يقوم بدور الزوج.. بشع.. ردئ.. لا يطاق..

فقالت الوجه الجديد فى لوم: ده أخويا محسن يا أستاذ..

فرد بسرعة" آه هوه الذنب مش ذنبه.. الذنب ذنب المخرج.. المخرج اللى يوجهه.. معاكوا مخرج حمار..

فردت الوجه الجديد.. أونكل حسام حمار.. لأ.. ما تقولش كده.. ده خالى يا أستاذ.. ده هو اللى فاضل لى من ريحة المرحومة.

فبلع الناقد ريقه، وقال.. ما أنا عارف حسام.. حسام كويس.. هوه المخرج ح يعمل إيه لوحده الرواية وحشة.. يعنى هوه ح يعمل م الفسيخ شربات.. المؤلف.. المصيبة كلها فى المؤلف.

وقبل أن ترد.. سألها.. المؤلف يقرب لك؟!

ابتسمت قائلة: لا.. ده مؤلف طليانى..

فرد بسرعة: طليانى يبأه حمار.

وهكذا فإن الحكم على العمل الفنى يعد أمرًا غاية فى الصعوبة لانه يتطلب الكثير من التجرد، فإذا هممت بأن أقول لك قصيدة لشكسبير، فأنت تؤهل نفسك من البداية لكى تقول الله.. ياسلام.. شايف العظمة.. شايف المعانى.. وإذا اكتشفت فى النهاية إنى ضحكت عليك، وعملت زى زكية زكريا، وقلت لك إيه رأيك بأه إنى أنا اللى مؤلف القصيدة.. هنا تتجهم وتعبس، وتطلع فيها كل العيوب والقطط الفطسانة التى لم ترها، حينما كنت أنا شكسبير.

ويحكى أن الكاتب الروسى العظيم مكسيم جوركى كتب موضوعا إنشائيا لولد من أقاربه عن أهمية الماء للبشرية.. وراعى جوركى العمر العقلى والمستوى الذهنى للطفل وهو يكتب له الموضوع... وكانت الدرجة التى نالها من مدرس التعبير.. صفر. وزجر المدرس التلميذ الخايب قائلاً:

ده إنتا قريبك مكسيم جوركى الكاتب الكبير.. قولُله يعلمك، فقال الولد فى جرأة.. ده هوه اللى كاتب الموضوع..

هنا ارتبك المدرس، وقال له: هو اللى كاتب ده؟! ثم نظر إلى الورقة.. ونظر إلى الولد.. ثم قال له: طيب سيبها شوية.

إن مسألة التقييم هذه مسألة تخضع لاعتبارات متعددة.. وأيام الجامعة كانت الاختبارات الشفهية عليها ٤٠٪ من النجاح، وقد ذهبت إلى الامتحان وأنا خايف، وإيدى على قلبى، فلم اكن مستعدا..

ودخلت اللجنة.. فنظر الممتحن لى نظرة ثاقبة، جعلتنى ارتعد، ثم قال لى باسما.. إبراهيم!! قلت له لا.. قال مستغربا إزاى؟! ابراهيم ابن بيومى عطا ده انت الخالق الناطق هوه.. ده أنا مربيه.. يخلق من الشبه أربعين يا دكتور.. وهم بالسؤال، ثم عاد وكأنه تذكر شيئا، وقال لى.. إنت تعرف إبراهيم أكيد. قلت له للأسف يا دكتور.. فالأربعين الذين هم شبهى، لم تتوفر لى الفرصة لكى ألتقى بهم بعد..

ابتسم وقال موجهًا الكلام لى.. ولمن حوله.. أصل إبراهيم ده أنا أنقذته من الموت.. كان جن مصور وهو صغير.. مرة اتقلب من الشباك من الدور الخامس، وأنا جريت وروحت ماسكه على أخر

لحظة.. بقى متعلق فى الهوا لحد ما شديته: أمه راحت مننا خالص.. وأبوه جاله شلل مؤقت، لما شاف المنظر، ونظر لمن حوله وقال لهم.. آه والله.. كان يوم فظيع، قلت له ربنا يوفقك يادكتور، وتنقذنى أنا كمان قال.. أنقذك من إيه؟ قلت له من السقوط.. فانفجر ضاحكًا، وقال لى.. طيب ياللا.. قوم ياله.. ووضع الدرجة، وهو يقول لزميله مش ممكن.. حتة من إبراهيم!!

وهكذا نجحت فى امتحان الشفهى بقدرة قادر، على الرغم من أننى لم أكن أعرف إبراهيم.

أما فى التحريرى، فقد حدث أننى كنت أمتحن، وكان السؤال الرابع مصيبة سوداء فهمست للجالس أمامى.. السؤال الرابع يا يسرى.. الرابع..

وبدأ يسرى يكتب لى الإجابة على ورقة، ثم ألقاها الغبى بحركة استعراضية، كأنه يلعب سلة.. وما إن وقعت الورقة على التختة، حتى أمسك بها المراقب، وتوتر الموقف.. وسألنى إيه ده.. قلت له فى استعباط أنا عارف؟!! أهى بلاوى وبتتحدف علينا: وفتح الورقة فوجد مكتوبًا عليها «آسف يايوسف، لم أعرف إجابة السؤال الرابع»..

ولم يستطع المراقب أن يتخذ من الورقة دليلاً على أننى أغش.. فالورقة فى حد ذاتها هى الدليل القاطع على أننى لم أستطع الغش.. وبعد لحظات كتبت أنا ورقة، وألقيتها ليسرى وجرى المراقب والتقطها؛ فإذا به يجدنى قد كتبت فيها ليسرى «.. أنا غلطان اللى باسأل حمار زيك» وخرجت وأنا أعاتب يسرى.. «قلت له أنبسطت؟.. المادة دى أنا واخد فيها صفر، مفيش كلام... قال لى.. أحمد ربنا.. أنا طالع منها عليا نمر.

لاشك أن عوامل خارجية كثيرة تؤثر على تقييمنا للأمور.. شوية مغص.. دور برد.. دمل فى مناخيرك، يمكن أن يجعلك وأنت تقرأ مقالى هذا تلعننى وتلعن اليوم، الذى عرفتنى فيه. وكان العرب يقولون لا رأى لحاذق ولا لحاقن. والحاذق هو الذى ضاقت نعله وحزقت قدماه حتى شعر بالآلم.. والحاقن الذى اضطر لأمر ما ألا يتبول.. ولا رأى لهما لما يحسان من الألم والكرب؛ مما يحول دون أن تنتج قريحتهما رأيًا صحيحًا.. وعليه أرجوك يا عزيزى القارئ إذا لم يعجبك مقالى.. أفعل شيئين.. اخلع حذاءك واعمل زيارة قصيرة للحمام.. واقرأه مرة ثانية.. هل تفعل ذلك؟!

ما رأيك فى المقال.. ياسيدى الله يخليلك... إنتا باين عليك تعرف إبراهيم.

# أجرى .. أجرى .. أجرى ..

أسوأ لحظة فى حياتى هى تلك اللحظة التى أتفق فيها على فلوس أو أوقع عقدا، وهذا ليس نابعا من أننى لاأحب الفلوس ـ لا سمح الله ـ إنما فى الواقع لأننى ـ بكل صراحة ـ أحبها.. فهؤلاء الذين يدفعون.. لحظة الدفع يستقبلوننى بود غريب وبشاشة مبالغ فيها.. فأشعر أننى ضحية من ضحايا ريا وسكينة، تساق إلى مصيرها المحتوم : يا أهلا.. يا أهلا.. ليمون ليوسف بيه.. قهوتك إيه.. وماله قهوة مع الليمون ده أنت صاحب مكتب.. لأ.. لأ والنبى.. تقعد هنا ع المكتب فى الصدارة.. أنت الأستاذ.. أعليلك النور شوية ياعبقرى؟! الوجوه من حولى مبتسمة، والعيون ملآنة بالحب العميق لشخصى المتواضع.. تماما مثل نظرة أبى وأمى لى، وأنا طفل، قبل أن يذهبوا بى إلى الطبيب عشان يطاهرونى.

أدخل لأتفاوض على الأجر، وفى رأسى رقم.. رقم بعينه.. لن أنزل عنه مليما واحدا.. ويبدأ السيناريو المحفوظ منذ آلاف السنين بمقدمة عن حالة البلد الاقتصادية المنهارة.. مفيش فلوس فى البلد

خالص.. واللهى كتر خيرنا إن إحنا لسه بننتج.. هو فيه فيلم ولامسرحية بتكسب النهاردة؟!..

وبما أننى مواطن مصرى، يجب أن يتعايش مع ظروف كل المصريين، فهذا هو ربع الرقم الذى فى رأسى يطير فى لحظة.. ثم يضيف المنتج، وهو يشعل لى سيجارة بكل تواضع.. طبعًا يا چو إحنا أصحاب، ومش هنتعامل زى الغرب.. دى شركتك وإحنا فى الآخر أسرة واحدة، وعاوزين ننجح مع بعض. وبما أننى صرت صديقا عزيزا، وهناك صلة دم مفاجئة صارت تربطنى به.. فليس أقل من أن أجامل فى نصف الرقم الذى فى رأسى على الأقل..

ويتدخل شقيق المنتج باسمًا فى لطف، ويقول له: بقولك إيه.. يوسف أنا أكتر واحد عارفه فيكوا.. ولا يوسف مش بتاع فلوس.. ده راجل فنان.. اللى يهمه العمل الفنى يطلع على المستوى المطلوب.. إنتو فاكرينه آلاتى جاى يأبج ويعمل سبوبة ويمشى.. مش ده صدقونى..

وهكذا بما أننى صرت مفكرا وأديبا مرشحا لنوبل على الأقل، فيجب عليا أن أترفع عن هذه التفاهات المادية ـ فلوس إيه ياراجل.. يتقلص الرقم الذى فى رأسى إلى الربع..

ويتدخل مدير الإنتاج ـ حتى يحلل أجره ـ ويقول: إحنا يا يوسف بيه لو علينا نقدر أجرك.. أنا أحط فى الميزانية مليون جنيه،

ويعارض المنتج بشدة قائلا: مليون إيه.. يوسف معاطى مايقلش عن ٥ ملايين..

ويتدخل شقيق المنتج بحزم قائلاً: فلوس الدنيا كلها ما تساويش سطر يكتبه بقلمه..

يومئ المنتج برأسه موافقًا.. مظبوط.. مظبوط.. الأجر اللى هتاخده ده مش أجر خالص.. الفيلم اعتبر أنك اديتهولى كادو.. المبلغ اللى هتاخده ده مبلغ رمزى.. قول عليه هدية بسيطة تعبر عن إعجابنا وإيماننا بيك ككاتب، وطبعًا محدش فى السوق هيعرف أنت أخدت كام.. إحنا فاهمين كويس.. ثم يشخط فى مدير الإنتاج بلا مبرر ويقول بُصْ.. اسمع.. لو فيه مخلوق عرف أجر الأستاذ مش هيحصل كويس.. ويرد مدير الإنتاج بسرعة.. لأ مش ممكن ياريس..

وهكذا بعد مظاهرة الحب السالفة.. تبخر الرقم الذى فى رأسى تماما.. بعد أن تحول الأجر إلى هدية.. والهدية ليست فى قيمتها طبعًا، وإنما فى معناها، حتى لو كانت وردة أو كارت معايدة.. ولايهدأ المنتج، ويقسم لى أن عنده أكثر من ٣٠ سيناريو جاهزين وواخدين رقابة.. وع التصوير إنما هو يريد أن تتشرف شركته، بأن يكون فيها اسم يوسف معاطى.

وكحلبة المصارعة.. يلمسه شقيقه، وينزل بسرعة إلى الحلبة

ويضيف لكمة جديدة.. بس مش معنى كده إن إحنا هناخد السيناريو ببلاش، إنما إحنا بنقول بسم الله الرحمن الرحيم.. ودى لقمة عيش وبنقول يا هادى مع بعض، وإحنا حاطين خطة كبيرة.. عشرة أفلام.. فى الفيلم التانى اللى تقول عليه تاخده.. ثم يصرخ فجأة.. فين شيشة الأستاذ!! أنا عارف إنت تحب تشرب حجرين كده، عشان تعدل دماغك، واللهى لما عرفنا إنك جاى، حضرنا لك الشيشة.. ويجرى مساعد الإنتاج.. وتدخل الشيشة..

ويسألنى المنتج.. سالكة؟! أومئ برأسى.. ثم يقوم ويجلس بجوارى.. ويهمس لى.. طلباتك يا جو؟! وقبل أن أرد.. يهمس لى مرة ثانية.. والعيش والملح اللى بينا.. أنا واخد قرض م البنك ما عارف ح أسدده أزاى؟! خليك حنين معانا شوية.. أنت بتعمل ده ليا أنا..

هنا أصبحت فى ورطة كبيرة، فأى رقم سأنطقه سيصدم تلك المشاعر الرائعة التى تحيط بى من كل جانب.. سيهدم الصداقة والحب، وسيحرمنى من جائزة نوبل التى رشحونى لها.. وهذا الاستقبال التاريخى لشخصى سيتحول إلى شغل بقالة بعد لحظة واحدة.. وبدأت الشيشة تدوخنى قليلا.. وشعرت أننى أترنح.. فتماسكت.. وأفقت.. وخبطت على رأسى.. محاولا ـ بصعوبة شديدة ـ أن أتذكر.. أتذكر هذا الرقم الذى حينما جئت إلى هنا كنت أنوى أن أطلبه.. وأخيرا فعلتها.. أنا عاوز كذا..

فى ثوان أنسدت الشيشة السالكة.. وتجهمت الوجوه.. وتجمدت الملامح.. وخرجت.. وعرفت بعد ذلك.. أنهم قالوا عنى إننى كاتب محدود.. على أدِّى آوى.. أنكروا صداقتهم بى تماما.. لأ.. مش صاحبنا.. هو ده يتصاحب.. ده مادى قوى.. يموت ع القرش.

عرفتم يا أعزائى لماذا أكره لحظة توقيع العقود وقبض الفلوس؟! لازم حد يكون معايا ماروحش لوحدى.. ويحكى أن مطربة ذهبت إلى نيويورك لتوقع عقدا بتلاتلاف دولار، وأثناء التوقيع كانت أمها معها.. فوجد مدير المسرح الأم تهمس لابنتها.. فرفع الأجر قليلاً قائلاً: اربعتلاف!! ثم عادت الأم تهمس لابنتها.. واضطر المدير لرفع الأجر مرة أخرى.. خمستلاف متهيأ لى كده كتير أوى، وعادت الأم تهمس فى أذنها، فقال مدير المسرح غاضبا: يا عزيزتى أنا لا أستطيع أن أرفع أجرك أكثر من ذلك.. إما أن توقعى أو نلغى العقد، فقالت المطربة: سأوقع طبعًا سأوقع. ولكن أمها عادت تهمس فى أذنها واستشاط المدير غضبًا، فأحمر وجهها وتلعثمت، وقالت للمدير: إن أمى. تريد.. من فضلك.. أن تذهب.. إلى دورة المياه.

# زى ما أنت شايف

قاتلة تلك النظرة الثابتة المتجمدة التى ننظرها لبعضنا البعض.. كأننا لوحات ثابتة أو تماثيل من الشمع.. فأجده ببساطة يقول لآخر.. يوسف ده طيب أنا ح اخلصلك الموضوع معاه.. واتساءل.. هل أنا كتلة من الطيبة المتحركة أنا بنى آدم.. وخيبتى المزعومة هذه ما هى إلا كادر ثابت بزاوية معينة، ولكننى من زوايا أخرى.. شيطان.. وبشع.. ولا أطاق.. ثم يعود ويقول ده.. ده اللى ف جيبه لغيره.. عمره ماحسبها.. ولكن.. من أدراك.. أنا أحيانا، ومن زاوية ثانية أحسبها بالمليم وبخيل وجلدة.. أنا إنسان ياعم.. بداخلى كل شىء..

ورغبتنا هذه فى تثبيت الصورة بها نوع من الاستسهال فى التعامل مع الآخرين.. وهى تضعنا كثيرًا فى مأزق من الاندهاش والصدمة، حينما تجد منى رد فعل لا تتوقعه، أو لاتريد أن تراه.. فتتحسر فى ألم: يااااه ده إنت اتغيرت بأى.. أنا لم أتغير.. ولكنك فقط رأيت تلك الزاوية التى تجاهلتها دائما..

لقد حكمت علىَّ أننى إنسان هادئ، فحينما رأيتنى أثور واغضب

وأصب جام غضبى أمامك تزعل، وهكذا نظل نرى أصدقاءنا وأهالينا وأولادنا بصورة واحدة، نحن فقط الذين نرسمها. .

وقد فشلت زيجة احد أصدقائى بسبب روعة فترة الخطوبة. . فهو كان يراها نسخة طبق الأصل من فاتن حمامة، وهى كانت تراه صورة طبق الأصل من أحمد مظهر، وعليه كانت ليلة الزواج هى «الليلة الأخيرة»، فقد اكتشفت العروسة أن فتى أحلامها «يتكرع» أثناء الأكل. . وحينما تنمو ذقنه، يصبح مثل خريجى السجون، كما أنه يأتى بأفعال بشعة حينما يكون الغداء محشى كرنب أو قرنبيط. .

أما هو فقد اكتشف أن صوتها عال جدا، وأنها بتموت فى الفلوس، وأنها تصدر أصواتًا مزعجة أثناء الأكل، تجعله يشعر أنه يجلس بجوار ماكينة فشار، وأن عينيها ليست بذلك الاتساع، الذى كان يبدو عليها أثناء الخطوبة. .

فلما زالت المساحيق اكتشف أنها لها جذور يابانية.

والذنب ليس ذنبها. . إنما الذنب كله يقع على تلك الكاميرا الملعونة التى كانت ثابتة، تأخذ اللقطة من زاوية واحدة، فلما تركت ظهرت أشياء أخرى فى الكادر، كانت بمثابة الصدمة. .

وهناك قصة روسية رائعة عن ولد اسمه «إيفان»، كانوا يعاملونه كطفل مدلل، ولكنه صار شابا فى السادسة عشرة، وكانت أمه لاتزال تساعده فى الحموم وارتداء ملابسه، وتوصله إلى المدرسة وتنتظره. . فهرب من المنزل. . طفش ولم يعثروا له على اثر. . وبكوا. .

وولولوا.. وذهب خاله إلى البيت؛ ليهدئ من روع الأم الثكلى ووعدها بالبحث عنه.

وبعد عدة أشهر، وبعد أن فقدوا الأمل فى عودته.. كان الخال خارجا من المصلحة الحكومية، التى يعمل بها ووقف على محطة الاتوبيس.. وطلع بين المتزاحمين.. ولكن.. يالها من مفاجأة... «إيفان» جالسا على مقعد الكمسارى، يحصل التذاكر من الركاب مرتديا البدلة الصفراء، وعلى وجهه جدية غريبة.. ولكن.. أوه.. إنه هو وصرخ الخال. يابن الإيه أنـت هنـا... الله يلعـن شيطانك يا ايفان.. تعمل كمساريا، ونحن نبحث عنك فى كل مكان. (ويضحك)، عفريت طول عمرك ياواد. هئ هئ إيفان كمسارى!! هذا لا يخطر ببال أحد ثم أشار للركاب المتزاحمين خلفه وهو يضحك فى سعادة.. إيفان هذا الكمسارى إبن اختى.. تصوروا.. لنا ثمانية أشهر نبحث عنه.. كان لا يستطيع أن يربط حذاءه بنفسه، ولكنه ياللمفاجأة هنا هئ هئ.. لا أصدق عينى.. ولكن إيفان أجابه بصراحة غريبة.. خالى من فضلك، عدى.. الركاب يريدون الدخول.. إنتا سادد الطريق..

وانفجر الخال ضاحكا.. ياه.. وكأنك كمسارى حقيقى.. هئ هئ.. كنت أجلسه على حجرى الملعون، وأهدهد فيه حتى ينام.. هاهو وحده مسئول عن أتوبيس بالكامل.. منظره بالبدلة يفطس من الضحك..

هنا واجهه ايفان بسؤال كالطلقة.. أين ستنزل ياخال.. قال الخال

مداعبًا يالك من ولد عفريت.. أنت تعرف أين سأنزل.. بعد ثلاثة محطات... أنا ذاهب إلى البيت.. بيت خالك.. محطة النصر ألا زلت تناور ياشقى.. وشد أذنه، فقاطعه ايفان، وهو يبعد يده بحدة.. وقال.. ستدفع ١٥ كوبيكا، وقطع التذكرة وأعطاه إياها.. تجمدت ملامح الخال بعد الجملة الأخيرة.. وقال وهو غير مصدق أتريدنى أن أدفع يا إيفان.. أنا خالك، هل تريدنى أن أدفع التذكرة؟!

قال إيفان بحسم: ادفع أو تنزل فورًا.. وصفر للسائق أن يوقف الأتوبيس، وقال بغلظة أو تذهب إلى قسم الشرطة.. ونظر له الخال مصدومًا، وهو يوجه كلامه للركاب: أنا خاله.. لقد عملها على رجلى حينما كان طفلاً.. لقد تلقفته على يدى لحمة حمرا.. ويريدنى أن أدفع التذكرة.. لقد كنت مسافرًا إلى موسكو، وكان المحصل فى القطار جارًا لأحد أصدقائى.. يعنى معرفة من بعيد، وحينما عرفنى أقسم ألا أدفع كوبيكا واحدًا، وأنت يا ابن أختى تريدنى أن أدفع.. قال إيفان من فضلك لا تعطل الركاب، ستدفع أم ستنزل!! ونزل الخال مصعوقا، وهو يضرب كفًا بكفًا..

وحينما زار أخته فى المساء، سألته فى حزن: أليست هناك أخبار عن ايفان فرد عليها بثقة.. لسه مالقيتهوش..

يبدو أن الخال كان يبحث عن إيفان الذى عرفه، أو بالتحديد عن الزواية التى كان يراه من خلالها.. تلك الصورة الثابتة التى لا يقبل أن تتغير.

# امسك.. كلينتون

كلمة «سابق» فيما يختص بالوزارات والمناصب العليا كلمة عزيزة نادرة، قليلاً ما نسمعها فى العالم الثالث..

المثل يقول.. أنتم السابقون ونحن اللاحقون.. وغالبًا يكتمل المثل السابق بمثل لاحق.. وهو عمرك أطول من عمرى، والمسئول طالما هو فى الخدمة يصبح محط الأنظار ووسائل الإعلام.. إذا عطس أو كح، تتناقل عطسته وكالات الأنباء فى العالم كله، وهو المعزوم فى كل الأفراح والمناسبات.. إذا مات ابن بنت خالة جوز خالته تجد العزاء «آرش كومبليت» أما إذا مات هو شخصيا فلا يذهب أحد.. وبمجرد ما أن يسبق لقبه كلمة «السابق»، يتحول بقدرة قادر إلى تليفون محمول، دخل فى حتة كلها مسلح..

وأصبح خارج نطاق الخدمة..

والرئيس الأمريكى رونالد ريجان، الذى بدأ حياته ممثلا، ثم حاكما.. ثم رئيسا للولايات المتحدة، والذى عاش دائما وسط الأضواء الساطعة فجأة.. النور انقطع.. نسيه الناس تمامًا.. مسحوه

من ذاكرتهم حتى أفلامه نسيوها، ولكى يواجه المسكين هذا النسيان المرير من الأخرين، قرر أن ينتقم منهم.. فنسيهم هو أيضًا بل نسى كل شيء.. حتى نفسه، واستسلم بنفس راضية لمرض الزهايمر الجميل، وزمانه دلوقت قاعد فى البلكونة يشتم الرايح والجاى.. وهكذا بلا حرس، فما فائدة أن تحرس شيئا لا يذكره أحد.

وأمريكا بقدر ما تصنع النجوم والمشاهد وتبلغ بهم عنان السماء، بقدر ما تقسو عليهم بلا رحمة.. عندك ريتا هيوارث التى كانت ملكة متوجة فى هوليوود، وأنهت حياتها فى الطراوة، وبتقطع فى شعرها... ولكن.. يظل كلينتون هو أكثر السابقين قدرة على البقاء وسرقة الكاميرا حتى فى لحظة رحيله.

كلينتون الذى كذب على شعبه فى مسألة مونيكا، وقال والنعمة الشريفة ما كان فيه بينى وبينها حاجة، ثم عاد واعترف أمام الجميع أنه كذب، ومع ذلك استطاع أن يخطف قلوب الأمريكان بابتسامته الجريئة، ولبسه الكاجوال وطريقته العصرية، واستطاع محامو مونيكا أن يضيقوا الخناق عليه، ونكدوا عليه فى فترة رئاسته القصيرة وخرج يامولاى كما خلقتنى، وعليه فلوس لطوب الأرض.

وللحق حاول الرجل أن يعمل له شغلانه صغيرة كده قبل ما يمشى.. نواية تسند زير.. حينما علم أن بتوع نوبل دول بيدفعوا كويس، وقرر أن يضع يده على الفيمتو حاجة، التى تعترض عملية

السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين يمكن تيجى معاه.. ويعملها، وللحق بذل الرجل جهودا خارقة فى الضغط على الفلسطينيين، ولكنهم طلعوا وش فقر، وهاهى فترة رئاسته عدت هوا، وأفاق على صوت هيلارى تهمس له: بوش الابن اتكلم وبيقولك: تفضَّلو البيض الأبيض، عشان يجيب حاجته من بكره، وقال كلينتون لنفسه فى أسى، آه.. هيَّه بأت كده..

وبدأ يشيل ويعبى... هذه الفازة الرائعة تساوى الشىء الفلانى.. أعطوها له اليابانيون حينما كان فى اليابان.. وهذا الطقم الصينى يعتز به جدا.. الحكومة الصينية الرقيقة المجاملة أعطوها له وهو ماشى.. والبيانو ده ياهيلارى.. إحنا جينا لقيناه هنا.. ولاده تبعنا؟! نظرت هيلارى إلى البيانو، وقالت دى تشيلسى بنتك بتلعب عليه وهى عندها عشر سنين.. وبعدين هو بوش ومراته ناقصين بيانو.. إيه فراغة العين دى؟! دول على قلبهم أد كده.. شيل شيل.

وخرجت النصف نقل بحراسة مشددة من البيت الأبيض، وفجأة أوقفتها لجنة على الكوبرى، ونظر الضابط فى ضيق إلى العربية، وقال للسائق: الحاجة دى رايحة فين وجاية منين، فأجابه السائق بثقة: دى حاجة الريس!!

فسأله الضابط: أنهو ريس؟

فأجاب السائق كلينتون.. بيل كلينتون أجبهولك على التليفون.

فأجاب الضابط: الرئيس الآن هو بوش.

فأجاب السائق: لسه ما استلمش، الراجل بتاعى لسه ما سابش البيت الأبيض.

واستطاع السائق فى النهاية أن يمر من اللجنة بالحاجة بتاعت كلينتون، وهناك فى بيت كلينتون الجديد جلست هيلارى وزوجها المواطن العادى جدًا يرتبان البيت..

فارتدى بيل المريلة، وبدأ فى تلميع الفضية، وحط الهدوم فى الغسالة الفول أتوماتيك، وفجأة دق جرس الباب.. ودخلت كبسة!! ضابط واثنين أمناء شرطة، ونظر الضابط إلى كلينتون وسأله: أنت بيل كلينتون.. أنت متهم بسرقة بعض المحتويات من البيت الأبيض، وخليته على الأبيض، وخبط كلينتون على صدره من هول الصدمة.. بأه بعد ده كله بتسرأونى، وجرت الكلبة من الداخل، حينما سمعت صراخ كلينتون وبدأت تنبح.

هنا قال الضابط: والكلبة دى كمان مش تبعك.. دى جَتْ كده هدية وأنت رئيس.. وإذا كنت قد غادرت البيت الأبيض، فلابد من أن تغادره بكلابه، وانقض الرجال على الكلبة وأخذوها من بين يدى كلينتون، الذى كان يتشبث بها وهى تنبح، وهو يتوسل أرجوكم

خذوا كل حاجة إلا دى، الأم مش هى اللى ولدت.. الأم هى اللى ربت وتعبت... واحتلت مسروقات كلينتون العناوين الأولى فى الصحف.. والأمريكان والدنيا كلها تتابعها بشغف.. وتبتسم.. رغم كل شىء من هذا الرئيس الدونجوان.. الكاذب.. الملاوع.. اللص.. سرق الكاميرا حتى بعد أن أصبح اسمه السابق.

# خير من يمثلكم

اسمحوا لى ان اختلف مع كل الفلاسفة فى تعريفهم للإنسان.. بأنه حيوان ضاحك، أو حيوان ناطق، أو حيوان يفكر، أو حيوان باكى.. فالكلاب تضحك وتهز ذيلها فى سعادة.. والببغاوات تنطق وتثرثر كما يحلو لها.. والنمور والفهود تفكر وتخطط، قبل أن تنقض على فرائسها والتماسيح تبكى وتدمع.. لذا فالغابة الإنسانية لاتختلف كثيرا عن الغابة الحيوانية.. اللهم إلا فى أن الإنسان حيوان لابس.. وهذه النظرية أيضًا ثبت لى خطأها تماما، حينما كنت فى زيارة قصيرة للغردقة وشرم الشيخ حيث يرقدون على الشواطئ، كما لم تلدهم أمهاتهم طبعًا.. فهم أكبر من ذلك سنًا ونضجًا، وقد طالت زيارتى قليلاً هناك ليس لفراغة عين والله، وإنما لتفنيد نظريتى هذه..

وعليه قررت أن أبحث عن تعريف جديد للإنسان فلا يصح أن يظل هكذا بلا تعريف ولا هدوم..

وأخيراً، وجدته... الإنسان حيوان سياسى... ما رأيكم؟

أليس هو الكائن الوحيد الذى أختار أفراداً بعينهم ليعبروا عن المجموع، وأطلق عليهم رجال السياسة.. فالحمير ليس بينها حمار يدافع عن حقوقها أو يتكلم باسمها.. والكلاب باختلاف أنواعها من اللولو والبولدوج والوولف.. حتى كلاب الشواع.. لاتجد كلبا يمثلها.. وصار أمراً غاية فى الأهمية أن تختار الجماعة ممثليها..

ومن هنا نشأت الجمعيات والنقابات والوزارات والبرلمانات... تلك الظواهر الإنسانية الحضارية التى تفرد بها الإنسان.. وإذا تصورنا مثلاً أن مجلسا للغابة انعقد فى مكان ما.. وحضره الأسود والنمور والغزلان والوعول، لانتهى المجلس بمذبحة كبرى، وكانوا خلصوا على بعض، وهذا الحيوان السياسى هو فخر البشرية بلا أدنى شك، فتخيلوا معى لو كان كل واحد عايش لوحده، لا أحد يمثله أو يعرض مطالبه.. لصرنا فى غاغة كبرى.

ولذا حينما جاء مندوب جنكيز خان حينما وجد مصر بلا حاكم يحكمها «أما أحب أكلم مصر أكلم مين؟»، فرد عليه أحدهم.. اطلب زيرو اثنين، وبعدين النمرة حتلاقي اللى يرد عليك، والغريب حقا أن هذا المغولى الغازى الذى يحرق البلاد ولا يترك عليها أثراً.. يطلب أحدا ليكلمه، وقديمًا كانت الطبول هى علامات بداية الحروب والدمار..

الآن صارت التصريحات السياسية هى الطبول الجديدة.. فهذا

عدى ابن الرئيس العراقى يعلن أن الكويت الشقيقة لازالت جزءاً لايتجزأ من العراق الشقيق.. ورغم أن الخلاف بين اثنين أشقاء، يتدخل بوش الابن، ويدك العراق مواصلاً مشوار أبيه، مدافعاً عن حقوق الدينار الكويتى، متناسياً تماماً أنه إذا وصل فرد كعب كده لحد إسرائيل الشقيقة، سيجد تصريحاً من شارون بأنه سيدك السد العالى فى مصر الشقيقة.. ولكنه هذه المرة لا يتحرك ولا يقول له اختشى.. ربما لأن شارون قلبه أبيض، هو عصبى شوية، إنما من جوه بفته بيضا..

ويتميز الحيوان السياسى بأنه إذا افترس شعباً غلباناً ضعيفاً يقدم للعالم حيثياته ومبرراته.. فينهال التصفيق والتأييد، بينما إذا افترس ذئب قطيعاً من الحملان.. لا يصفق له أحدا.. ربما لانه حيوان فقط، وليس سياسياً بالطبع، فلا تزاحمه الميكروفونات ولا الأسئلة من الصحفيين ليرد عليها بمهارة ودهاء..

والناس تحب أن تسأل السياسيين.. حتى لو لم يصدقوا.. فالعملية كلها تمثيل فى تمثيل.. فهو «ممثل» الشعب.. وما يحدث ما هو إلا «سيناريو»، كما يطلقون عليه هذه الأيام، لذا يتمتع الساسة بنجومية لا تقل عن نجومية الممثلين.. إن لم تزد.. فهذا ونستون تشرشل يوقف تاكسياً، ويطلب منه الذهاب إلى محطة الإذاعة.. فيعترض السائق ويقول له.. لأ يا باشا.. المشوار بعيد وأنا لازم

أروح البيت، عشان اسمع خطبة تشرشل.. ويسعد تشرشل جداً حينما يسمع ذلك من السائق الذى لم يعرفه.. فيقول له مغرياً إياه ح أديلك عشرين جنيها.. فيهتف السائق سعيداً.. يبأه ملعون أبو تشرشل اركب يا بيه.. والعلاقة بين الناس وساستهم علاقة سيكوباتية.. فهم يحبونهم أحياناً ويلعنونهم كثيرا.. يؤمنون بهم ثم يكفرون بهم.. ولكن تظل العلاقة سوية، طالما أن الحوار بينهما لم ينقطع..

وذكر المقريزى أن حاكمة تدعى «نونيه» كانت تحكم فى زمن ما وهى محتجبة عن الناس، إلا أنها جعلت فى سور القصر أنابيب من النحاس المجوف.. وكتب على كل أنبوب موضوعاً من الموضوعات، التى تهم المواطن فكان كل من أتاها لنصيحة أو رأى أو شكوى وقف عند الأنبوب، وتكلم بما يريده أو يشكو منه.. فإذا فرغ من قوله، جعل أذنه فى الأنبوب، فيأتيه جواب ما سأل عنه، وفكرة «نونيه» الرائعة هذه أتقدم بها إلى الحكومة.. أنابيب التواصل بينكم وبين الناس يجب أن تظل دائماً ممتدة مفتوحة.. وإن كنت أخشى أن الأنبوب ربما يكون مغلقاً أو خارج نطاق الخدمة.

# إيـه الأخبـاااار؟!

من صباحية ربنا وأنا على هذا الحال.. الكل يطرق الباب ويعطينى فاتورة ويطلب فلوسا.. هذه فاتورة كهرباء بخمسين جنيه؟! ليه.. أسأل زوجتى إحنـا عملنا فرح الشهر اللى فـات ولا حاجـة.. لا ترد وتنظر لى كأننى عبيط أكلم نفسى، وفاتورة الغاز بتلتميت جنيه؟! ليه.. أعود واسألها.. إحنا فتحنا مطعم وأنا مش عارف؟! لا ترد وتنظر لى باستهزاء كأننى مش حاسس بالدنيا، ثم تأتى الطامة الكبرى.. فاتورة التليفون.. نعم!! كام؟! ألفين وسبعميت جنيه، وقبل أن أسألها سؤالى التقليدى.. تصرخ فى زهق قائلة:

أنت اللى بتأكل.. وأنت اللى بتقعد طول الليل فاتح النور، قال إيه.. بتقرأ.. وأنتا اللى مابتبطلش رغى فى التليفون.. فعلام تعترض؟! الحمد لله.. أنا معايا موبايل.. وبانام أنـا وبنـتى مـن الساعة ٩..

قلت لها فى يأس..

أنا لا أعترض، ولكن ع الصبح كده!! وتنهدت فى حسرة.. نفسى

اسمع خبر كويس.. يطرق الباب.. ويأتينى جواب الضرائب.. أنا أعرف هذا النموذج جيدًا.. نموذج ١٩.. فهو يرفع لى السكر والضغط.. بتقديراته الجزافية، التى يجب أن أدوخ السبع دوخات حتى أثبت أننى لم أكسبها..

ويجن جنونى أكتر.. حينما ينادى عليًا البواب، بأعلى صوته من تحت.. وغالباً أنا الذى أنادى على البواب لكى يشترى لنا شيئًا، أو يلمع السيارة.. ولكن أن ينادى هو عليا.. فهذه مسألة غريبة.. ولاغريبة ولا حاجة، الذى حدث أن سيارة نقل كانت تعبر الطريق وهشمت سيارتى، وهاهو يزف لى الخبر هل ترون بشاعة هذا اليوم، إن الكل يتلذذ، وهو ينقل لك خبر وحش لا أعلم لماذا..

أوعى تأكل لحمة.. أنا بقولك أهوه. الميه ملوثة.. أشرب كراويه.. القاهرة هى أكثر مدن العالم تلوثًا.. وجمعيات الرفق بالحيوان تنصح بنقل الحيوانات من الحديقة؛ حتى لا يؤثر عليها الجو المخنوق طيب وإحنا البنى أدمين.. إيه الأخبار؟! اتفلقوا.. المؤسسات العالمية الحضارية لا تهتم إلا بشيئين الحيوانات والتماثيل التى فى طالبان..

وعليه.. فأنا أعيش يومى فى سيمفونية من الأخبار الوحشة.. وبالتالى صرنا حينما نتلاقى لا نتصافح ولا إزيك ولا أهلا ولاسهلا.. وإنما نلتقى بكلمة واحدة.. إيه الأخبار؟ وفجأة أصبحنا

جميعا «مراسلين» بصورة ما . . لا ننقل لبعضنا البعض إلا مجموعة من الأخبار السيئة؛ ولذا أنا اقترح أن ينفح حامل الخبر الكويس بنفحة محترمة؛ لتشجيع الناس على نقل الأخبار المفرحة.

وهذا النظام كان معمولا به فى العهد التركى، وجرت العادة أن ينعم بلقب «بك» على أول من يحمل البشارة إلى الوالى الجديد بتوليته عرش مصر، وأن ينعم عليه بلقب «باشا» أن كان «بيكا» وكان بسى بك يشتغل فى ذلك الوقت فى منصب مدير المخابرات التلغرافية بالسراى الخديوية، وكان يعلم بخطورة المرض على «الخديو سعيد»، وبدنو اجله، وما ينتج عن ذلك من انتقال العرش إلى «إسماعيل»، وكان بسى بك يطمع فى لقب باشا بالطبع؛ لذا فإنه لم يغادر آلته التلغرافية لمدة ثمانية وأربعين ساعة. . ليتلقى نبأ البشارة، ويكون أول من يحملها إلى إسماعيل. . ونام بسى بك من شدة التعب والسهر. . ولم يقو على الاستمرار. . ولم ينطق هذا التلغراف اللعين. . فاستدعى الساعى الذى يعمل عنده. . وأمره بالبقاء بجوار الآلة التلغرافية حتى يذهب إلى مخدعه ويستريح قليلاً. . وامره إذا وردت أى إشارة تلغرافية، فعليه أن يوقظه فى الحال، وله مقابل ذلك خمسمائة فرنك. . وألقى بجسده المنهك على السرير، وراح فى سبات عميق.

وفى تلك الليلة. . ١٧ يناير ١٨٦٣، جاءت الإشارة وتلقاها هذا

الساعى الغلبان، وجرى على سراى الأمير إسماعيل، طالبًا المثول بين يديه.. وجثا على قدميه وقدم إليه الإشارة، فقرأها إسماعيل والبشر يملأ وجهه، ونظر إلى الساعى الجاثى تحت قدميه، الذى تلقى الإشارة حينما وقعت من يد الخديو إسماعيل من فرط فرحته، ووضعها الساعى فى جيبه، وتبسم إسماعيل قائلا وهو يربت على كتفه.. انهض يابك ونفحه نفحة عظيمة..

وعاد الساعى إلى رئيسه وأيقظه وأعطاه الإشارة.. فسر بسى بك جدا وأنقده الخمسمائة فرنك، وأسرع بالرسالة إلى سراى الأمير إسماعيل، ممنيًا نفسه بلقب باشا.. فلما مثل أمام إسماعيل هتف به الخديو قائلاً إيه الأخبار.. وعرض بسى بك عليه الإشارة فقال الأمير بفتور.. لقد أصبح هذا لدينا خبرا قديما.. فأدرك الرجل فى الحال خيانة الساعى، فاستشاط غضبًا، وعاد إلى مكتبه.. واستدعاه.. وأمسك به.. أيها الخائن.. الحقير.. ولكن الساعى دفعه بشدة، وقال.. اخرس.. إحنا بقينا بهوات زى بعض.

إن نقل الأخبار السعيدة مسألة يجب أن نشجعها.. وأن نكافئ عليها ناقليها حتى لا يصابوا بإحباط.. مثلما حدث لهذا الرجل الذى ذهب إلى أحد الوزراء، يزف له خبر استمراره وزيرا فى الوزارة الجديدة، فتلقى الوزير الخبر بفتور شديد، وقال له مثلما فعل الخديو إسماعيل.. وإيه الجديد طب ما أنا عارف..

# حتة حديدة

لاشك أننا يجب أن نعجب، لا أن نضحك أو نسخر من هذا الاختراع الكبير، اختراع الأوسمة والنياشين والجوائز.. فهو اختراع قوة أدبية هائلة، تفوق أهم الاختراعات، إذ يجعل الناس يقتحمون الصعاب ويبذلون اقصى الجهد لكى ينالوا فى النهاية.. حتة حديدة يرون فيها أمجد مجد وأشرف شرف.. هذا جنون بلا شك.. ولكنه جنون جميل.

ويروى لنا التاريخ حادثة ذلك الكونت الذى عايره الملك ذات يوم وقال له.. من جعلك كونتًا؟! فأجابه الكونت ويده على سيفه... أنت يامولاى، ولكننى الذى جعلتك ملكا!!

والبداية فى تصورى كانت رومانية.. حينما كان ينعم القائد الرومانى على أبطاله بعلامات، يتزينون بها فى الحفلات العمومية وأشهرها الأكاليل.. إكليل المعسكر لأول جندى يدخل معسكر الأعداء.. وإكليل الحصن.. لأول جندى يهاجم قلعتهم.. تلك هى الإنعامات الكبرى التى كان الأبطال يتباهون بها ويسعون لنيلها.

والدولة العثمانية كانت بلاشك من الدول الرائدة فى حكاية الجوائز والأوسمة والالقاب، فكان يسبق اسم الشخص دائما لقب ما.. عزتلوا بك.. سعادتلوا أفندم.. دولتلوا رفعتلوا.. عطوفتلوا.. سماحتلوا.. مكرمتلوا.. مودتلوا.. وأنا شخصيًا أنوى أن أعمم حكاية الألقاب هذه على دولة الطاقية.. طقتلون افندى.. سعادتلوا بك.. دماغتلوا باشا..

ويقال إنه أثناء الحرب بين المانيا وفرنسا.. كان الجندى «فوكه» الفرنسى قد أبلى بلاءً حسنا فى الحرب، ووعده ضباط الفرقة بالنيشان.. وتوالت السنون «وفوكه» الغلبان لم يعلق النيشان.. الحرب خلصت ومحدش فضيلو، ولم تلمح الميدالية الفضية على صدره، إلا بعد أربعين سنة.. يادوبك حطها على صدره، وقال لهم إعدلونى ع القبلة..

وقد حدث هذا عندنا فى مصر، فالضابط الذى أسر عساف ياجورى.. فتح الجرائد ثانى يوم الصبح.. لقى واحد تانى هوه اللى أسره.. الراجل اتجنن.. ده بتاعى.. هيه إيه.. نهيبة!! وراح لمدير السلاح.. وراح للوزير.. ولف ع الدنيا كلها.. ومحدش سأل فيه.. إلى أن جاء يوم بعد أربع سنين، وكان السادات يخطب فى الجيش.. وراح صاحبنا.. ورفع إيده قدام السادات.. قال له السادات عاوز إيه؟! قال له الضابط أنا اللى أسرت عساف ياجورى..

فنظر السادات إلى مدير السلاح، وقال له. الكلام ده مضبوط؟! فأوما مدير السلاح برأسه مضطرًا؛ فقال السادات للصحفيين.. صوره ويأخذ نجمة سيناء ووسام البطولة.. وعاد الحق إلى الرجل.. ولكن الطريف أن لصًا اقتحم شقته ذات ليلة، وسرق الأوسمة كلها فقد كان يظن أنها من الذهب، ويبدو أن الراجل ده ما بيعشلوش أوسمة..

ويقال أن بوليس باريس لقى شابًا، يتمشى فى الشانزلزيه متقلدًا وسام «الليجون دونر» فارتابوا فى أمره.. فهذا الوسام لا يحمله إلا الشيوخ من العظماء، الذين أتوا فى حياتهم أعمالاً جليلة.. وأخذوه من قفاه ع القسم.. وسأله الضابط عن اسمه ولقبه وسبب تقلده هذا النيشان العظيم، فأجاب الشاب بكل بساطة.. أنا عما نويل ملك البرتغال السابق.. فانحنى الضابط باحترام واعتذر له طبعًا..

وإنى لأعجب من البعض الذين يكلمون اللجان، التى تمنح الجوائز ويلحون عليهم أن يعطوهم الجائزة.. وأعجب أكثر حينما تعلن اللجنة فوز الفنانة فلانة بالجائزة الأولى.. فإذا بها تصرخ من هول المفاجأة.. وتبكى بدموع الفرح، مع أنها مخلصة الموضوع بالليل فى التليفون، وإذا كان لها أن تحصل على جائزة.. أحسن ممثلة فأنا أعطيها الجائزة على المشهد الذى مثلته، وهى تستلم الجائزة.

# زائـــد ناقـــص

أسدل الستار بمجرد ما أن أدخل إلى حجرتى، أحب الحجرة أن تكون كحل، لأننى أحيانًا أخرج شريط الذكريات وحدى لأشاهده فى الظلام، ولأريد للشريط أن يحرقه شعاع ضوء يتسرب إلى الحجرة، أضع شريط السنة الماضية، أضغط على زرار الترجيع، واتفرج من البداية، ما الأشياء التى أريد أن أعمل لها مونتاج، ما الذى أريد أن أحذفه من السنة الماضية، وما الذى أريد أن أحتفظ به، أو آخذه معى للسنة الجديدة.

فى الظلام جلست وحدى أشاهد نفسى، فوجدتنى لا أبكى على الأشياء التى فقدتها، ولا أسعد بالأشياء التى حصلت عليها.

إذا حسبتها ستجد أنها فى الآخر محصلة بعضها، ولوجدت نفسك فى جميع الأحوال «زائد وناقص» فى الوقت نفسه، إذا زادت شهرتك وفلوسك، نقص عمرك وراحت صحتك، وإذا وصلت إلى ما تتمناه وحققت طموحك وأحلامك، تجد نفسك فى النهاية، فى خريف العمر تتفرج على نفسك، على فيلم حياتك، وتستعرض الأشياء التى وقعت منك فى الطريق، ستتذكر بسعادة

التهامك لساندوتش طعمية ساخنة حرمت منها لآن الأسباب صحية، برغم أنك حينما كنت تأكلها، كنت تفكر فى الكباب وتلعن حظك.

وبقدر ما تعطى الحياة، يقدر ما تأخذ وهى تحاسبك بالمليم، فإذا هبطت عليك ثروة من السماء لاتسعد كثيرًا، وإنما إسأل نفسك من أين ستسدد للحياة هذا الدين؟، من راحة البال أم من الصحة أم من الهناء العاطفى، وإذا وقعت لك مصيبة من حيث لاتدرى فلاتحزن على الإطلاق، فسيأتى الفرج بالقدر نفسه، وإذا آمنت بذلك فعلا ـ وأنا أعلم أنك لن تؤمن به ـ سيودعونك الخانكة فورًا.

تخيل منظرك وقد كسبت مليون جنيه فى اليانصيب، وأن تبكى وتلطم على وجهك وتخبط الأرض بقدميك، وتدعى على نفسك خوفًا من المصيبة القادمة، سيقول لك الناس بعد أن هبطت عليك هذه الثروة فجأة: شد حيلك، كلنا لها ماتزعلش نفسك، ياساتر يارب، مليون جنيه!! يزولوا بإذن الله، وتخيل منظرك، وقد نزلت من البيت، فوجدت سيارتك محطمة، بعد أن دخل فيها لورى عجنها!! تخيل منظرك وأنت سعيد سعادة لاحد لها، مزقطط زقططة لا مثيل لها والكل يحسدك، ويقول لك: مبروك ياسيدى دى مكتوبالك، آدى تالت عربية تتفور لك أهوه، شوف الخير اللى جاى لك بقى!!

وفى النفس الإنسانية، هذا التناقض الغريب، فأنت حينما تضحك

تدمع عيناك، وحينما تبكى بشدة يمكن أن تنفجر فجأة من الضحك، القنوات موصلة لبعضها ولهذا لا تلح على الدنيا، ولا تلح على رزقك، فالرزق غتيت جدا، إذا قرر أن يجئ لك، سيطرق بابك وسيو قظك من النوم وسيصل إليك، وإذا جريت أنت وراءه، مهما فعلت، لن تطوله، طالما أنه ليس لك. والحل؟! قال لى صديقى المتعجل، قلت له، سيب إيديك خالص، واعمل كما قال لك أستاذنا يحيى حقى خليها على الله.

لم يعان أحد من الفنانين كما عانى أنور وجدى.. جوع وبرد ونوم فى الشوارع، وكانت أمنيته أن يمتلك عمارة، وبناها وعزم الأصدقاء ليفتتح العمارة الحلم، وإذا به يقول أستطيع أن أكتب تنازلاً عن العمارة الآن فوراً للطبيب الذى يسمح لى بأن أغمس لقمة فى طبق الملوخية، وهذا عبد الحليم لم يحقق أحد ما حققه، شهرة وفلوس وحب الناس، وبنات زى القمر يتمنين نظرة من العندليب، والثمن!! مرضه وبقاؤه بلا زواج طول حياته، بلا ابن أو بنت تؤنس وحدته، لو سألت عبد الحليم فى نهاية حياته بالتأكيد، كان سيقول لك إنه دفع الثمن غاليا، وربما غنى لك فى تأثر شديد، توبة.. توبة..

لذلك كن حريصا جداً وأنت تمد يدك وتأخذ شيئا من الدنيا، فأنت لا تعلم أنك تكتب على نفسك شيكات عالية الفوائد، ولأنك غالبًا

تتمنى ماليس عندك، فأنت أيضا لا تعرف حقيقة ما تتمناه هذا، فإذا تمنيت الحرية وحصلت عليها، تكتشف أنها ضياع وفوضى ووحدة قاتلة، وإذا تمنيت الاستقرار وعملتها وتزوجت، لوجدت أنه خنقة ونكد وهموم متلتلة، والمعذبون فى هذه الدنيا، هم الذين يريدون كل شيء؛ ولهذا لا «تقر» على أحد أو تنظر لما معه، فقط خذ البيعة على بعضها، وقبل أن تقول كيف حقق فلان كل هذا، قل ما الثمن الذى دفعه لكى يصل إلى هذا، وإذا وجدت البيعة حلوة، احسده زى ما أنت عاوز. وأنا واثق أنك لن تقبل البيعة، فقبل أن تحقد على المليونير وفلوسه اللى زى الرز، اعرف أولا كم قدم من تنازلات وما الصعوبات التى واجهته حتى يخرج بالأرنب إلى النور! وقبل أن تحسد الراقصة المشهورة على سيارتها الفارهة، التى تتمخطر فى الطريق، أعرف تاريخها، مش تاريخ السيارة بل تاريخ الراقصة، وإذا كنت تستطيع أن تفعل ما فعلته هى، حلال عليك العربية ياعم.



حينما سئل العقاد لماذا لم يتزوج، أجاب حينما توفرت الإرادة لم تتوفر الوسيلة، وحينما توفرت الوسيلة لم تتوفر الإرادة، دائمًا هذا الشيء الناقص، ولكنك إذا تعمقت فيه جيدًا، لوجدت أنه القوة الدافعة للحياة، إنه أشبه بقفلة حلقة فى مسلسل تليفزيونى طويل متشابك الأحداث، وقال الملك فريد شوقى، زمان كان التمثيل صعبًا والسهر سهلاً، دلوقت التمثيل بقى سهل والسهر هو اللى

صعب. وإذا راجعت حساباتك، وأنت فى بداية العام الجديد، ستجد أن الحساب متقفل، لو كنت قد فقدت حبًا فستجد أنك قد كسبت نجاحًا، وإذا فقدت فلوسك ستجد أنك كسبت صحتك، وإذا كانت سيارتك اتشدشت أديك وضبت الشقة، هكذا ياعزيزى شيء بالزائد وشيء بالناقص.

قال لى صديقى التعس الكئيب: كان عامًا رهيبًا توفيت حماتى، وطلقت زوجتى، قلت له: أنت.. ستزول منك النعمة أيها الجاحد إن كل هذا بالزائد ياعبيط.

# النهايات المفتوحة!

تقولّلى تكره إيه فى حياتك؟ أقولّلك النهايات المفتوحة.. يعنى أنت تقعد مسمرنى ساعتين قدام الفيلم، ومشكلات بتتعقد ومشكلات بتتحل.. وفى النهاية حضرتك عاوز تسيبنى والنهاية مفتوحة؟! قال لى وهو يهرش فى رأسه، ثم يثبت نظارته الطبية على أنفه.. علشان تفكر.. فالنهاية المفتوحة هى النهاية الواقعية.. الحياة نفسها مفتوحة.. لاتنتهى..

قلت له: شوف.. لو ليلى مراد وأنور وجدى ما أتجوزوش فى أخر الفيلم يجيلى نقطة.. لو فريد شوقى ما أنتقمش من كل اللى ظلموه فى آخر الفيلم... واحد ورا الثانى.. لحد ما خلص عليهم.. أتفقع..

قال لى: وهل كل قصص الحب تنتهى بالزواج؟

قلت: لأ، طبعًا.. ولكن قصص الحب هذه فى الحياة لا نؤلفها ولانخرجها.. إنما القصص التى نرويها على الشاشة أو فى الكتب، نحن الذين نصنعها، فلماذا نعقد الأمور يا أخى.. وأنا أعلم أيضا أن

غالبية اللصوص فى الحياة مطلقو السراح، وعايشين أحسن منى ومنك.. إنما اللص الذى أؤلفه، ثم بعد ذلك أحكيه فى رواية أو فيلم.. لص من تأليفى، أستطيع أن أزج به فى السجن بجرة قلم.. وأجعله عبرة لمن يعتبر..

دار هذا الحديث بينى وبين صديقى المخرج، ونحن فى قطار الصعيد، وأمامنا على الأقل تسع ساعات؛ حتى نصل إلى القاهرة، يعنى نهاية مفتوحة فتحة سودة.. وبالطبع يجب أن نملأ الطريق بحديث، حتى لو كان سخيفًا، طالما أننا لم نجد تذكرتين فى عربات النوم، وإلا لكانت تلك هى النهاية السعيدة المريحة لكلينا..

وفجأة أطل علينا رأس لرجل كبير السن، تبدو على ملامحه الطيبة والذكاء، وقال بابتسامة رائعة:

عذرًا.. لقد شدنى حديثكما.. فهل تسمحان لى بالتدخل..

قلنا له فى أدب: طبعًا طبعًا..

فعلى الأقل هو سيحمل عنا عبء الحديث بعض الوقت..

قال الرجل:

النهايات التقليدية التى يتغلب فيها الخير على الشر مثلا.. تصلح للحكايات الشعبية.. والأساطير.. لأن المقصود منها.. العظة والعبرة للسامعين.

قلت له لأفتح شهيته للكلام: أعطنى مثالا..

فأشعل الرجل سيجارة، وقال:

فى الهند القديمة كان هناك سلطان اسمه بهادرخان.. وكان السلطان، يتهيب أن يحكم بإعدام شخص خشية أن يظلمه وهو برئ.. فتراكمت القضايا عند السلطان دون أن يقطع فيها برأى.. إلى أن اهتدى وزيره إلى فكرة مريحة..

وكانت الفكرة أن تنشأ ساحة مستديرة، تحيط بها المدرجات الخاصة بالسلطان والحاشية.. وفى نهاية الساحة.. بابان.. أحدهما يؤدى إلى حجرة بها أسد مفترس.. والآخر يؤدى إلى حجرة بها فتاة حسناء.. ثم يؤتى بالمذنب إلى الساحة، ويطلب إليه أن يختار أحد البابين.. فإذا ساقته قدماه إلى باب الأسد.. كان مذنبا.. أما إذا ساقته قدماه إلى باب الحسناء الفاتنة.. نصيبه بأه.. وعندئذ يحق له أن يتزوجها، ويقوم السلطان بكل مصاريف الجوازة على حساب السلطنة؛ لتعويضه عن اتهامه ظلمًا.

.. وأعجب السلطان بالاقتراح، وصارت الساحة هى المحكمة التى تحدد مصير المحكوم عليهم بالإعدام..

هنا أفقنا أنا وصديقى، بعد أن كنا نتعس فى أماكننا، معجبين بل مأخوذين بحديث الرجل الشيق.. وحمدنا ربنا أننا لم نجد تذكرتين فى عربات النوم؛ حتى نستمتع بهذه القصة الجميلة، وفى صوت واحد قلنا له:

وبعدين!!..

ابتسم الرجل فى خجل، وقال:

طيب أروح الحمام وآجى أكمل لكوا..

وذهب الرجل.. ونحن طلبنا اثنين قهوة ع الريحة.. وطلبنا له شاى..

وعاد الرجل بسرعة وجلس، وقد صارت بيننا حميمية رائعة.. واستطرد:

كان للسلطان بنت جميلة وحيدة، تقدم لها الأمراء والسلاطين، ولم يوافق الأب لشدة ارتباطه بها، ولاعتقاده أنها أغلى من أن يزوجها لأى إنسان.

ووقعت بنت السلطان فى حب شاب من عامة الشعب.. ولم تستطع أن تقاوم هذا الحب، ولا هو طبعًا، وكانت شديدة الغيرة عليه لدرجة الجنون، فانكشف الأمر.. ووصل إلى السلطان فاستولى عليه الغضب، وأرسل فى إحضار ابنته.. التى اعترفت له بكل جرأة.. نعم أحبه يا أبى.. أحبه أكثر من أى شىء فى الدنيا.. اقتلنى إذا شئت، ولكن لن تستطيع أن تقتل حبه فى قلبى.. وكبر على السلطان أن تعترف ابنته الغالية بحبها أمامه.. وأصدر فى الحال أمره بالقبض على الشاب وإحضاره..

فلما مثل بين يديه، صرخ السلطان فيه قائلا: أتعرف ما جزاء من يتطلع لبنت السلطان؟!.. وارتجف الشاب وعملها على روحه، وهو

يسمع السلطان يزأر.. الموت.. لا جزاء سوى أن تقتل وتعلق على أبواب المدينة.. معلش ح استأذنكوا ثانية واحدة أروح الحمام...

لم يكن السلطان طبعا هو الذى قال ذلك، وإنما محدثنا الرائع.. الذى يبدو أنه عنده سكر ولا حاجة.. ونظرت إلى صديقى، وأنا فى غاية الدهشة، وقلت له حكاية رائعة.. قال لى.. المهم القفلة.. وعاد صديقنا بسرعة وهو يشد سوستة البنطلون أمامنا؛ حتى لا يتأخر علينا.. وقال:

بكى الشاب وتوسل إلى السلطان.. أقَسم له أنه لم يجرؤ، حتى على أن ينظر إلى ابنته، وإنما هى التى بدأت.. هى التى جذبته، وهو... لم يستطع أن يقاوم سحرها ورقتها، وانتهى السلطان إلى قرار.. أن يدفع به إلى ساحة القضاء..

وفى اليوم المحدد جئ بالشاب أمام السلطان، وكانت ابنته تجلس بجانبه فى هلع.. وقال السلطان.. اسمع أيها الشاب.. أمامك بابان خلف أحدهما أسد جائع كاسر.. وخلف الثانى أجمل فتيات المدينة.. ولك أن تختار أحد البابين بغير تردد.. وتطلع الشاب المسكين مرعوبا إلى الجالسين، فلمحت عينه يد أبنة السلطان تشير إشارة خفية نحو أحد البابين.. وكانت بالتأكيد تعرف أيهما يؤدى إلى الأسد، وأيهما يؤدى إلى حيث أجمل فتاة فى المدينة.. فما أن رأى الشاب الإشارة الخفية؛ حتى اندفع نحو الباب الذى وجهته ابنة السلطان إليه...

و. . . معلشى مزنوق خالص. . ثانية واحدة. . وجرى إلى باب أخر. . باب الحمام. . ليس الشاب طبعًا. . إنما محدثنا العبقرى. .

قلت فى غيظ: يعنى هيه حبكت. .

قال صديقى: وماذا تنتظر. . القصة خلصت. . لقد أرشدته بنت السلطان إلى باب العروس، التى سيتزوجها بلاشك. .

قلت له بالعكس: فهل تطيق أن ترى الرجل الذى أحبته كل هذا الحب يتزوج بأجمل فتاة فى المدينة. . إن الحل الوحيد أنها دفعت به إلى حجرة الأسد؛ حتى لاتظفر به العروس ولا تظفر به هى. .

قال محتداً: هل يمكن أن تدفع بمن تحبه إلى الموت. .

قلت له وأنا أكثر احتدادا: وهل يمكن أن تدفع به فى أحضان امرأة أخرى. .

وظل الحوار بيننا هكذا. . وطالت غيبة الرجل فى الحمام هذه المرة، وذهبت إليه استعجله. . ولكن كان القطار قد وصل إلى القاهرة. . واختفى الرجل فى الزحام، وتدافع المسافرون إلى الرصيف. . ولم أجد أمامى غير صديقى يحمل حقائبه. . ويناولنى حقيبتى. . وأنا ألعن اليوم الذى ركبت فيه القطار. . وأقول له بيأس. . تقوللى تكره إيه فى حياتك؟!. . أقولَّلك النهايات المفتوحة.

# المحتويـات